مؤتمر مكة المكرمة الثامن

[الخطاب الإسلامي وإشكاليات العصر]

٥-٧ ذي الحجة/١٤٢٨هـ

١٥-١٧ ديسمبر/ ٢٠٠٧م

بحث بعنوان :

[الخطاب الإسلامي بين الواقع والمأمول]

إعداد :

أ.د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي

جامعة طيبة بالمدينة المنورة

ملخص بحث: الخطاب الإسلامي بين الواقع والمأمول

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد: ففي الأسطر الآتية ملخص البحث:

أولاً: عناصر البحث:

مقدّمة.

إشارة إلى الدراسات السابقة.

المبحث الأول: واقع الخطاب الإسلامي اليوم:

أوّلاً: أصنافُ الخطاب الإسلامي اليوم.

ثانياً: منزلقات وقع فيها بعض القائمين بالخطاب الإسلامي.

ثالثاً: وقفة مع الصنف الأول مِن الخطاب الإسلامي: أمثلةٌ وتطبيقات، ومناقشة.

المبحث الثاني: إشكالات الخطاب الإسلامي اليوم.

المبحث الثالث: معالم الخطاب النبوي مِن خلال أحاديثه ﷺ:

أَوّلاً: الأحاديث القولية، المتعلقة بصورةٍ مباشِرةٍ بالكلمة والقول أو الكلام.

ثانياً: الأحاديث المشتملة على مخاطبة الرسول ﷺ لغيره: مسلمين، وغير مسلمين، موافقين ومخالفين.

ثالثاً: الأحاديث المشتملة على مكاتبات الرسول ﷺ لغيره: مسلمين، وغير مسلمين، موافقين ومخالفين.

رابعاً: نتائج الخطاب النبويّ وآثاره الحسنة في الآخرين.

خامساً: آداب وقواعد أساسيةٌ في موضوع الخطاب الإسلامي.

سادساً: بعض سِمات الخطاب الإسلامي مِن خلال استقراء نصوص الكتاب والسنّة.

المبحث الرابع: المأمول في الخطاب الإسلامي اليوم.

الخاتمة.

ثانياً: خلاصة في بيان فكرة البحث:

يتناول البحث "الخطاب الإسلامي بين الواقع والمأمول"، وهو موضوع لا تخفى أهميته على المعنيين بالإصلاح اليوم، والمشتغلين بالعلاقات والتواصل، وإن اختلفت الرؤى.

إن استقراء ورصد الخطاب الإسلامي تحتاج إلى جهد كبير، وإلى دراسة مسحية لأدبيات أصحاب هذا الخطاب على اختلاف مناهجهم ومشاربهم وطروحاتهم، وذلك بعد تقعيد القواعد المنهجية التي ينبغي الاحتكام إليها وتطبيقها بهذا الخصوص.

ومن خصائص الخطاب أنه لا تحده حدود لتحصره في منحىً خاص من مناحي الحياة، كما أنه توجد علاقة وثيقة بين الخطاب والسلوك وبين القول والفعل، وبين البرامج والأهداف...

والمقصود بـ"الخطاب الإسلامي" في هذا البحث: النشاط الثقافي والفكري وقضايا العلاقات وأنماط التواصل مع الآخرين، وما تستلزمه من أفعال وتصرفات وأنشطة.

وإذا كان البشر عامة يحتاجون إلى التواصل فيما بينهم، فإن حاجة المسلمين لذلك أولى وأشد وآكد، فإنهم أصحاب الرسالة الخاتمة التي أمر الله باستفاضة البلاغ بها، والخطاب بمفهومه الشامل هو أهم وسائل هذه الاستفاضة، ومن هنا كان للمسلمين مسلكهم الخاص في خطابهم، ذلك الخطاب الذي لا ينحصر في مخاطبة الآخَر غير المسلم، بل يشمل كذلك الخطاب الإسلامي تجاه الآخَر المسلم.

إن ثمرة هذا البحث تكمن في كشف النقاب عن واقع الخطاب الإسلامي ومدى ملاءمته للمطلوب شرعاً، ومدى التزامه بهدي الكتاب والسنة في هذا الباب.

ومن هنا تعرض البحث إلى أصناف الخطاب الإسلامي اليوم، وهي ثلاثة من حيث الجملة:

أولها: الصنف الذي التزم منهج الغلو في التكفير والتبديع والهجر، فخرج بذلك عن دائرة الفقه الإسلامي الصحيح.

والثاني: هو الذي التزم منهج المعارضة والنقد للخطاب الإسلامي بشتى أنواعه، من منطلق الاعتراض على الخطاب الإسلامي مِن حيث هو خطابٌ إسلامي، وبغية الإساءة إليه، ولكن بأسلوب غير مباشر قد يؤثر في كثير من المسلمين.

والثالث: هو الصنف الذي التزم منهج الوسطية والاعتدال وفق دلالات الكتاب والسنة، وجمع بين التأصيل الشرعي، والمعاصرة المنضبطة بضوابط الشرع.

وقد رَكَّز البحث على الصنف الأول؛ لأنه هو الذي له آثاره السلبية على الخطاب الإسلامي، فبيّن البحث جملة من المنزلقات التي وقع فيها بعض القائمين بالخطاب الإسلامي، وأورد أمثلة ونماذج من تطبيقات منهج الصنف الأول، وذلك في القديم والحديث، مع مناقشةٍ موضوعية لها، وتعليقات تهدف إلى بيان الحق والصواب.

ثم خلص البحث إلى إيراد نماذج من معالم الخطاب النبوي من خلال أحاديث النبي ﷺ، سواء ما تعلق منها بصورة مباشرة بمسؤولية الكلمة وأمانتها، أو ما كان فيه مخاطبة للمسلمين وغير المسلمين من الموافقين والمخالفين، أو ما اشتمل على مكاتبات الرسول ﷺ للمسلمين وغيرهم، وذلك بغية التعرف على منهجه ﷺ في الخطاب واستخراج القواعد والآداب المتعلقة بذلك، مما ينبغي للمسلمين مراعاته بدقة في خطابهم حتى ينالوا السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، ذلكم هو منهج الحرص على خير الناس جميعاً، ونجاتهم من النار، ودفع الضرر عنهم، وجلب المصلحة لهم، وتكريمهم ورحمتهم بهم والإحسان إليهم، ودفع السوء بالإحسان... مما يقلب العدوّ إلى صديق حميم بإذن الله.

ومن نتائج الخطاب النبوي الكريم وآثاره الحسنة في الآخرين ما يلي:

١- بيان هدي الإسلام في الخطاب والعلاقة والتعامل والحوار والتواصل.

٢- تقرير الأسس الشرعية للخطاب الإسلامي.

٣- تشريع منهج الخطاب الإسلامي للأمة.

٤- قوّة التأثير الحسن في المخاطبين وفق ذلك المنهج القويم.

٥- تأليف قلوب الناس على الإسلام وعلى الخير.

٦- تخفيف عداوة الخصوم وتحييد شرهم.

٧- التعامل مع الخصوم ومع غير المسلمين ببعدِ نظرٍ، تُحْسَبُ فيه مصلحة الدعوة والأمة.

٨- توفير الأوقات والجهود والطاقات.

٩- تربية المسلمين على منهج الخطاب النبوي، وضرب المثل والقدوة الحسنة لهم.

١٠- خلوّ الروايات من أي أثر سلبي للخطاب النبوي في أي من الناس، وهذه بشرى عظيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

١١- العناية بالدعوة واستفاضة البلاغ الشرعي.

١٢- العناية بإيضاح التمييز والسمو في منهج الإسلام.

وأورد البحث جملة من الآداب والقواعد الأساسية المتعلقة بالخطاب الإسلامي، منها:

١- أنزل الله هذا الدين العظيم لينعم الناس جميعاً بخيره، وكلّف الله المسلمين بدعوة غيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن قوّة في الحجة وجمالاً في الأسلوب.

٢- مهمة المسلمين العرض لا الفرض. وعدم الإكراه في الدين من الأحكام الأساسية المعلومة من الدين بالضرورة.

٣- اشتمل الوحي من كتاب وسنة على منهج الخطاب الإسلامي وأسسه وقواعده وآدابه، والواجب الاهتداء بذلك والوقوف على دلالته ومقاصده.

٤- لكل حال ومقام حكم ومقال. فِقه حال السلم يختلف عن فِقه حال الحرب، ولا يجوز الخلط بين الأمرين، أو الخطأ في تطبيق أحكامِ حالٍ على آخر.

٥- يجب أن نراعي في منهج الخطاب الإسلامي قاعدة: تحقيق المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها.

٦- العدل في القول والعمل مع الموافق والمخالف في الخطاب الإسلامي فريضة

شرعية، والإحسانُ في ذلك منقبة يُلَقَّاها كل ذي حظ عظيم.

٧- باب الاجتهاد في الدين بضوابطه الشرعية مفتوح، وعلى الخطاب الإسلامي مراعاة ذلك بدقة بالغة.

٨- الإسلام دين يرعى الفطرة الإنسانية، كما يرعى العقيدة والشريعة، لذا أمر برعاية العلاقات البشرية والروابط الإنسانية ومراعاتها.

٩- إن تباين مسالك النظر في نصوص الكتاب والسنة يؤدي إلى التباين في نتائج الاستنباط: صواباً وخطأ، تيسيراً وتشديداً، تعصباً وتسامحاً... فلا يصح تشويه الإسلام بسبب خطأ أَتباعه.

١٠- للتعصب والتقليد أثرهما في طبيعة فِقه بعض المسلمين لدينهم، ولهما أثرهما في خطابهم الديني، فينبغي الحيطة والانتباه لذلك.

كما تعرض البحث إلى بعض سمات الخطاب الإسلامي الأصيل من خلال استقراء نصوص الكتاب والسنة، مثل جمعه بين الصدق والحق، وقوة الحجة، وبين جمال الأسلوب وسمو العبارة، والعناية بتصحيح الأخطاء وتقويم السلوك بدل الوقوف عند إصدار الأحكام على الناس، والأمر بالصبر والتقوى والعدل والإحسان، والدعوة إلى لين الجانب وطيب الكلام وحسن المعشر.

ثم ساق البحث جملة من أهم إشكالات الخطاب الإسلامي اليوم، وبيّن أسباب الوقاية منها، منتهياً بذكر المأمول من الخطاب الإسلامي اليوم، وذلك في نقاط محدّدة يمكن الانطلاق منها لإعداد أوراق عمل تنفيذية في عدة مجالات حيوية تسهم في تصحيح المسار والمسيرة بإذن الله تعالى.

وقد خُتم البحث بتقرير أن القصد منه مرضاة الله تعالى ببيان شيء من معالم هذا الدين العظيم في هذا المجال الحيوي الخطير، وتخليص الدين من أخطائنا وتجاوزاتنا، والدعوة إلى فقه تصحيح الأخطاء، والسمو بالخطاب الإسلامي شكلاً ومضموناً حتى يؤتي ثماره يانعة مباركة بإذن الله تعالى.

وبالله التوفيق والعصمة، وله سبحانه الفضل والمنّة.

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم أنبيائه ورسله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أ.د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي

جامعة طيبة–المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والرسُلِ محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد:

فهذا بحثٌ يتناول "الخطاب الإسلامي بين الواقع والمأمول"، أُقدِّمه لمؤتمر مكة الثامن، ١٤٢٨هـ، شاكراً جزيل الشكر رابطة العالم الإسلامي ممثّلةً في معالي الأمين العام الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والإخوة القائمين على المؤتمر، سائلاً الله تعالى للجميع القبول والتوفيق.

وموضوع أَهَمِّيَّتِهِ لا تخفى على المعْنِيِّينَ بالإصلاح اليوم، والمعْنِيِّين بالعلاقات والتواصل، وإنْ اختلفت الرؤى في التفاصيل والمنطلقات.

واستقراء واقع الحال بالنسبة للخطاب الإسلامي، لا شكّ في أنّ له قيمةٌ كبرى، وأنه أَمْرٌ يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ، أكبر مِن هذا البحث، ومِن ذلك أنه يحتاج إجراء دراسةٍ مسْحية لعددٍ مِن المؤلفات، وكثيرٍ مِن الكتابات، ووفْرةٍ في الحوارات؛ لرصْدِ قربها أو بُعْدها عن هدْي الإسلام في طبيعة الخطاب الإسلامي المطلوب مِن المسلمِ فرْداً ومِن المسلمين بصفتهم أُمّةً. وذلك بعد تقعيد القواعد المنهجية التي ينبغي الاحتكام إليها أو تطبيقها في هذا الشأن.

ولا يخفى أنّ الخطاب لا تَحدّه حدودٌ؛ لِتَحْصُرَهُ في منحي مِن مناحي الحياة، الخاص بمجالٍ ما: كالخطاب الثقافي، والخطاب الحواريّ، والخطاب السياسي. وهناك الخطاب المحلي، والخطاب الدولي. وهناك الخطاب التخصصي، والخطاب العامّ، والخطاب الديني، إلى آخر ما هنالك.

ولعل مِن المهم الإشارة إلى وجودِ علاقةٍ متينةٍ بين الخطاب والسلوك، وبين القول والفعل، وبين البرنامج والأهداف، وبين الثقافة والتطبيق في الواقع، وذلك بحسبِ الأصل المفترَض، وبحسبِ الأعم الأغلب بالنظر لواقع الناس اليوم، أفراداً ومجتمعات؛

فهناك تلازمٌ بين الخطاب والواقع، أو بينه وبين السلوك.

والمقصود بـ"الخطاب الإسلامي" في هذا البحث: النشاط الثقافي والفكري وقضايا العلاقات وأنماط التواصل مع الآخرين، وما تستلزمه مِن أفعال وتصرفات وأنشطة؛ فَيَدخل فيه الخطابات والكتابات والأفعال ذات الصلة بموضوع العلاقات والتواصل، والرؤى والمناهج التي تَحْكم الناسَ في هذا المجال.

"من المهم أن أشير هنا إلى أننا إذا كنا في سياق توصيف الصور الصحيحة والمثلى للخطاب الإسلامي فإن علينا أن نتحدث حديثاً واحداً، وكأنه ليس أمامنا سوى خطاب واحد، لكن حين ننقد ونقوّم فإن علينا أن نجتنب الألفاظ والتعبيرات التي تفيد التعميم، لأن واقع الخطاب الإسلامي فعلاً متنوع ومتباين"(١).

والتعامل بين البشر والتواصل فيما بينهم قضيةٌ محتّمةٌ، والمسلمون ليسوا استثناءً مِن الناس؛ بل إنهم يكوّنون جزءاً مهماً مِن البشرية اليوم، أعداداً ومكانةً، وهم خاضعون لهذه الضرورة البشرية مِن التعامل والتواصل مع الآخرين.

وللمسلمين دينهم وعقيدتهم، وبرنامجهم، ورُؤاهم في قضايا التواصل والعلاقات، وبالتالي في مسلك خطابهم.

ولا شك في أنّ هناك تجاذباً وتأثُّراً وتأثيراً فيما بين الخطاب الإسلامي اليوم، وبين قضايا المسلمين وملفاتهم الساخنة في مختلف البلدان، ولاسيما أنّ الإنسان يَسمع ويَرى، ويُحِسّ، ويَقع عليه الأثر المباشِر، وربما وُضِع في ظرفٍ قد يَضطرّه للخروج عن مبدئه ومنهجه مِن حيث لا يُريد، أو يَجعله يُرجِّح ما ليس راجحاً، ويَختار ما ليس مُخْتاراً. ومع ذلك فإنّه بحاجةٍ ماسّةٍ دائماً إلى المراجعة والتقويم، وبحاجةٍ إلى الحرية والشجاعة في عملية المراجعة والنقد والتقويم هذه، ويَظَل المنهج عاصماً ومُحْتَكماً أساسيّاً في هذا الشأن وهذا المقام.

وليس الخطاب الإسلامي منحصراً في مخاطبة الآخَر غير المسلم، بل يشمل، أيضاً، الخطاب الإسلامي تجاه الآخَر المسلم.

---

(١) تجديد الخطاب الإسلامي الشكل والسمات، د.عبد الكريم بكار، المقطع الأخير من ص ٢١-٢٢.

والسؤال هنا هو: هل واقع الخطاب الإسلامي اليوم مُنسَبكٌ ضِمْن الإطار الصحيح المطلوب إسلاميّاً من المسلمين، أو أنه ليس كذلك؟. وكم هي المسافة بين الواقع والمأمول؟ وما المعايير والمنهج؟.

لا يخفى أنّ الواقع لدى المسلمين اليوم -على ما تَشهد به منابِرُ الخطاب ومعابِرُهُ- ليس كما ينبغي في سِمات الخطاب الإسلامي المطلوب، كما أنّ في الواقع إيجابياتٍ ليستْ مَنْكورة إلا عند مَن ينظر إلى الواقع بعين واحدةٍ لا تقع إلا على الأخطاء، فيتجاوز مَنْطِق العدل في حُكمه على الأشياء. وسنشير في البحث، بإذنه تعالى، إلى طرفٍ مِن هذا الجانب مِن الموضوع، دون إيغالٍ في تفصيلات هذا الواقع؛ إذ المقصود بيان واقع الحال؛ للإقرار بالداء والبحث عن الدواء.

وإنّي لأرجو أن يُسْهِم هذا البحث في الإجابة عن بعض هذه التساؤلات، وأن يَرْسم صورةً تُسانِد نتائج كثيرٍ مِن المحاولات والدراسات البنّاءة الجادة التي سَبَقتْ هذا البحث.

ومِن المهمّ أنْ أُشير هنا إلى أني لم أَقصِد في نَقْد ما نقدْتُهُ في هذا البحث، مِن أفكارٍ وآراء ذَمَّ أصحابها، أو القائلين بها، وإنما أردتُ النصْح والتقويم في ضوء منهجنا الشرعي القويم، و(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[٢].

ولو أنّنا قَبِلنا تحكيم الكتاب والسنّة في مفاهيمنا -بصدقٍ، وحُسْن فقهٍ- وخَضَعْنا لنصوصهما؛ لاتّضحت الرؤية، وانحلّتْ المشكلة، وضاقتْ هوّة الخلاف.

أسأله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يَهدينا سواء السبيل.

وصلِّ اللهم على أنبيائك ورسلك أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أ.د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي

جامعة طيبة-المدينة المنورة

(٢) أخرجه البخاري.

عناصر البحث:

مقدّمة.

إشارة إلى الدراسات السابقة.

المبحث الأول: واقع الخطاب الإسلامي اليوم:

أوّلاً: أصنافُ الخطاب الإسلامي اليوم.

ثانياً: منـزلقات وقع فيها بعض القائمين بالخطاب الإسلامي.

ثالثـاً: وقفـة مـع الـصنف الأول مِـن الخطـاب الإسـلامي: أمثلـةٌ وتطبيقـات، ومناقشة.

المبحث الثاني: إشكالات الخطاب الإسلامي اليوم.

المبحث الثالث: معالم الخطاب النبوي مِن خلال أحاديثه ﷺ:

أَوّلاً: الأحاديث القولية، المتعلقة بصورةٍ مباشِرةٍ بالكلمة والقول أو الكلام.

ثانيـاً: الأحاديـث المـشتملة علـى مخاطبـة الرسـول ﷺ لغـيره: مـسلمين، وغـير مسلمين، موافقين ومخالفين.

ثالثاً: الأحاديـث المـشتملة علـى مكاتبـات الرسـول ﷺ لغـيره: مـسلمين، وغـير مسلمين، موافقين ومخالفين.

رابعاً: نتائج الخطاب النبويّ وآثاره الحسنة في الآخرين.

خامساً: آداب وقواعد أساسيةٌ في موضوع الخطاب الإسلامي.

سادساً: بعض سِمات الخطاب الإسلامي مِن خـلال اسـتقراء نـصوص الكتـاب والسنّة.

المبحث الرابع: المأمول في الخطاب الإسلامي اليوم.

الخاتمة.

إشارة إلى الدراسات السابقة

لن أَدخُل في شيءٍ مِن التفصيل عن الدراسات السابقة؛ نظراً لضيق المساحة المخصصة للبحث، وإنما أُشير مجرد إشارةٍ إلى بعض تلك الدراسات فيما يأتي:

- "القائلون بالحرب وأدلتهم"، فصلٌ كتبه د. سعيد الصيني[٣] في طبيعة علاقة المسلمين بغيرهم، وهل هي الحرب أو السلم؟ ناقش القول بالحرب، وردّ على استدلالاتهم، وأوضح أن الصحيح أنّ علاقة المسلمين بغيرهم الأصل فيها السِّلْم، لا الحرب، وأنّ القائلين بغير هذا مخطئون في استدلالاتهم، وأنهم حَمَلوا الأدلة التي استدلوا بها على غير دلالتها، إلى جانب إغفالهم النظر إلى الأدلة الأخرى في مقابلها، التي تدل على أنّ العلاقة سلمية، وإذا ما حصلت الحرب فإنها طارئة.
- الجهاد الإسلامي في السنة النبوية"، د. سعيد بن إسماعيل الصيني[٤]، ناقش فيه تعريف الجهاد، وأوضح أنه أعمّ من الجهاد بالسلاح، وأنّ الجهاد أنواع، وأنه ليس خاصّاً بمجاهدة الآخرين، وإنما يَدْخل فيه جهاد النفس، وأن الجهاد له وسائل متعددة، فليس مقصورة على السلاح، وإنما تشمل الجهاد بقوة الإرادة والجسم، وبالمال وباللسان، كما في الحديث: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[٥].
- "تجديد الخطاب الإسلامي: الشكل والسمات"، د. عبد الكريم بكار، الرياض، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

---

(٣) الفصل الثالث مِن بحثٍ له غير منشور بعنوان: "التعامل النبوي مع غير المسلمين".

(٤) الفصل السابع مِن بحثٍ له غير منشور بعنوان: "التعامل النبوي مع غير المسلمين".

(٥) أخرجه أحمد وأبو داود، والنسائي، والدارمي، وابن حبان في صحيحه، وجاء بهذا اللفظ، كما جاء بلفظ:
(جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ)، وسِوى ذلك، والمعنى مقارِب.

- "تجديد الخطاب الإسلامي: الرؤى والمضامين"، د. عبد الكريم بكار، الرياض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- "الخطاب الديني الإسلامي: المبادئ النظرية وشروط التجديد"، د. محمد الفاضل اللافي، مصر – المنصورة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- "الخِطاب الإسلامي: وقفَة لِلمُنَاصَحَة"، عُمر عَبيد حَسنه، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الخطاب الإسلامي إلى أين؟، حوارات: وحيد تاجا، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- إلى كتابات أخرى كثيرة في الموضوع.

المبحث الأول
واقعُ الخطاب الإسلامي اليوم

أوّلاً: أصنافُ الخطاب الإسلامي اليوم:

لا يحتاج المتابع للخطاب الإسلامي اليوم إلى كبير جهد ليدرك ما فيه من الخلل، يَظْهر هذا مِن خلال النظر إلى واقع المسلمين اليوم، وما تَشهد به منابِرُ الخطاب ومعابِرُهُ المتعددة، ومنها: اللقاءات المتنوعة، والكتابات، والمؤلفات، والمحاضرات، والحوارات، ومختلَف مَداخِل الإنترنت (ومحركات البحث فيها، وغُرَف الدردشة، ومختلف صفحات الإنترنت والمواقع الإلكترونية)، والقنوات، والإذاعات.

ويتّضِحُ مِن خلال أدوات الخطاب تلك ووسائله وأساليبه أنّ خطاب المسلمين الديني اليوم يَنقسم إلى مسالك متعددة، اتّجهَ كلٌّ منهم وِجْهةً يتبنّاها، ويسيرُ في ضوئها. ويُمْكِن أن نَقْصر الإشارة إلى الأصناف الثلاثة الآتية مِن الخطاب:

الصنف الأول مِن الخطاب الإسلامي:

وهو كلُّ نشاطٍ قوليّ، أو خطابيٍّ، أو كتابيٍّ، علميٍّ، أو فكريّ، أو دعويٍّ، يُمثِّل تبنّياً للوجهة الإسلامية، وَفْق دلالات الكتاب والسنّة، لكن، بحسب عددٍ مِن الأسس والقناعات، الخارجة عن دائرة الفقه الصحيح للإسلام، كالاتجاه إلى التكفير ونحوه، أو العناية بإصدار الأحكام على الآخرين، أو تأسيس الخطاب والسلوك على قانون الهجر والتهاجر بين المسلمين، والتأكيد عليه، لا على الوصل، والأخذ بالشدة لا بالسماحة، وبسوء الظن، لا حُسْن الظن، المعتمِد على التقليد والتقليل مِن قيمة الاجتهاد، وعلى توظيف مبدأِ الولاء والبراء فيما بين المسلمين على جزئيات الدِّين، وتفسير النصوص بظاهريةٍ غير مرادة فيها في كثيرٍ مِن الأحيان، إلى آخر ما هنالك مِن هذه الوجهة.

وليس مِن شرْطِ ذلك أن يكون القائمون بهذا الخطاب فئةً واحدةً مِن الناس، وإنما يُمَثِّله كلُّ مَن تَبنّي أُسسَ هذا النوع مِن الخطاب وقناعاته.

الصنف الثاني مِن الخطاب الإسلامي:

وهو كلُّ نشاطٍ قوليّ، أو خطابيٍّ، أو كتابيٍّ، علميٍّ، أو فكريّ، أو دعويٍّ، صادِر عن أُناسٍ مِن أبناء المسلمين، يُمثِّل تبنّياً لوجهةِ المعارضة والنقْد للخطاب الإسلامي، لكن، بحسب عددٍ مِن الأسس والقناعات، الخارجة عن دائرة الفقه الصحيح للإسلام والرضا به، والاستسلام له.

إذْ هو الخطاب القائم على مناوأة الخطاب الديني، بصورةٍ عامّة، المبني على الضيق بكلّ ما هو دينيّ، المتبني للحل اللبرالي والخطاب اللبرالي، المستورِد برنامجه ومنهجه مِن الخارج، المستقوي به، المدّعي الانفتاح دون قيود، أو ضوابط، الضائق ذرعاً بالحديث عن الآخرة، والجنة والنار، والأحكام الشرعية، وبالحديث عن ثوابت الأُمّة وتاريخها وتمجيده.

وليس مِن شرْطِ ذلك أن يكون القائمون بهذا الخطاب فئةً واحدةً مِن الناس، وإنما يُمَثِّله كلُّ مَن تَبنّى أُسسَ هذا النوع مِن الخطاب وقناعاته.

وهذا الصنف مِن الخطاب قد اتّجهَ ابتداءً إلى الانطلاق مِن إطارٍ لا يَرى الأمور بحسب الرؤية الإسلامية، وإنما يرى بحسب الرؤية اللبرالية للدين والحياة!.

وهذا الصنف يُمثّله شرائح، منها كتابات الحداثيين، وما جرى مجراها.

ولا يدّعي هذا الخطاب أنه يُمثّل الوجهة الإسلامية، لكنه لا ينفك عن نقْد الكتابات الإسلامية، وقامت نقاشات حادّة بين هذا الخطاب والخطاب المتبني للرؤية الإسلامية بعامّة!.

والحقّ أنّ هذا الخطاب ليس داخلاً في دائرة الخطاب الإسلامي- على ما يراه القائمون بهذا الخطاب أنفسهم-.

وإنما عَددتُه في تقسيمات الخطاب الإسلامي لاعتبارين: الأوّل: كونُ القائمين به أناساً مِن أبناء المسلمين. الثاني: لِخوض القائمين بهذا الخطاب في الخطاب الإسلامي، وتَدخُّلهم فيه، إمّا نقداً له، أو توصيفاً له، والدعوة إلى التجديد فيه وإصلاحه، وما إلى ذلك.

ومما يلاحَظ على هذا الصنف مِن الخطاب أنّ تَدخّله في الحديث عن الخطاب الإسلامي يكون في كثيرٍ مِن الأحيان مِن باب خوض الإنسان فيما يجهلُهُ، أو ما لا يَدخل في تخصصه، ويكون أحياناً مِن باب مجرد الاعتراض والنقد، وهذا وذاك لا يُسوِّغان النظر إلى هذا الخطاب باعتباره نوعاً مِن الخطاب الإسلاميّ، ولهذا لم يَدّعِ القائمون بهذا الخطاب أنفسهم أنهم يُمثِّلون الخطاب الإسلاميّ!.

ولهذا فلن أُوغِل في الحديث عن هذا الصنف مِن الخطاب؛ لِما ذكرتُهُ عن شأنه وطبيعته.

وليس البحث مخصصاً لنقده حتى أتناوله في البحث بالتفصيل.

ولا يَخفى أنّ هذا الصنف مِن الخطاب يُعدّ إحدى معوِّقات الخطاب الإسلاميّ في المجتمعات الإسلامية.

الصنف الثالث مِن الخطاب الإسلامي:

وهو كلُّ نشاطٍ قوليّ، أو خطابيٍّ، أو كتابيٍّ، علميٍّ، أو فكريّ، أو دعويٍّ، يُمثِّل تبنّياً للوجهة الإسلامية، وَفْق دلالات الكتاب والسنّة، والوسطية التي دعا إليها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، مع تَبنّي التحديث والتطوير الذي لا يتعارض مع مفاهيم الإسلام؛ فيَجمَع بين الأصالة والمعاصرة.

فهو خطابٌ قائمٌ على الأخذ بمبدأِ التحديث والتطوير في ضوء عقيدة الإسلام وأحكامه وشريعته وأخلاقه، والأخذ بالسماحة والتيسير بضوابطهما الشرعية، المحتكِم إلى النصوص الشرعية -نصوص الكتاب والسنّة- المتبنى لمختلَف الإيجابيات في مقابل تلك السلبيات لدى النوع الأول مِن الخطاب.

وهذا الصنف مِن الخطاب هو المتبنّي العناية بالتماس الصواب في فقه الإسلام، وفهْم الأمور الحياتية المرتبطة بمستقبل الإسلام والمسلمين، والعلاقات السليمة مع مختلف الأطراف، المسلمة وغير المسلمة، والعناية بالتطوّر العلمي.

وليس شرطاً أن يكون القائمون بهذا الخطاب فئةً واحدةً مِن الناس، وإنما يُمَثِّله كلُّ مَن تَبنّي أُسسَ هذا النوع مِن الخطاب وقناعاته.

ولن أَدخل في الحديث عن تفاصيل هذا الخطاب؛ لأنه هو الأصل المنتَظر مِن الخطاب الإسلامي، وإنْ كان هذا الصنف مِن الخطاب لا يَخلو مِن أخطاء وانتقادات؛ طالما أنّه جهدٌ بشريّ.

وإنما سأخص الكلام للحديث عن الصنف الأول -كما قلت- للأسباب التي سأذكرها عند الحديث عنه.

والأمثلة للصنف الثالث مِن الخطاب معلومةٌ مشهورة، بحيث لا تحتاج إلى إيراد؛ وذلك لأنّ كلّ نشاط علميّ أو فكريّ أو دعويّ يتبنّى المبادئ التي يتبنّاها هذا الخطاب، فهو مثالٌ مِن أمثلته.

ملحوظة:

تلك هي أصناف الخطاب الصادر مِن المجتمعات المسلمة، المتبنّية تُجاه قضية الخطاب الإسلامي لموقفٍ ووجهةٍ ومنهجٍ ما.

ولن أَدخُل في تفصيل القول عن كلٍّ هذه الأصناف، وإنما سيكون الكلام حسب الحاجة لتحقيق هدف البحث، وهو بيان الواقع، وبيان المأمول في ضوء معطيات الاحتكام إلى مفاهيم الكتاب والسنّة والقواعد الشرعية المقررة؛ لهذا أكتفي في هذه الفقرة بهذه الإشارة إلى هذا الصنف مِن الخطاب، لبيان أصناف الخطاب الإسلامي، وأخص الصنف الأول مِن الخطاب الإسلامي بوقفةٍ، فيها عَرْضُ نماذج منه، ومناقشتها، وأتجاوز الحديث بمثل هذا عن الصنف الثاني مِن الخطاب لكونه دخيلاً على الخطاب الإسلامي، والصنف الثالث لكونه هو الأصل والمفترَضُ.

ثانياً: مُنزَلقاتٌ وَقَع فيها بعض القائمين بالخطاب الإسلامي:

مما وَقَع فيه بعض القائمين بالخطاب الإسلامي المعاصر مِن منزلقات:

- تَجاهُلُ مكانة الحوار، وأهميته، بينهم وبين مَن يَختلف معهم في شيءٍ ما، والضيق بالرأي المخالِف، ومواجهة المخالِف بالروح العدائية، بدلاً مِن الحوار والنقاش والدعوة بالحكمة.

- الانسياق في كثيرٍ مِن الأحيان مع موجةِ الخلاف والخلافيات العقيمة بين مختلف أصناف الخطاب الإسلامي، وتَضخيم خطورة الخلاف بينهم، ومجافاتهم لهدْي الإسلام وأحكامه الداعية إلى حُسْن العلاقة والتواصل بين أفراد المجتمع المسلم، ومؤسساته ومدارسه.
- وكذلك، مما وَقَع فيه بعض القائمين بالخطاب الإسلامي -بمختلف مناهجهم- وغيرهم مِن المعارِضين لهم: مجانبةُ الحقيقة عند الحديث عن موضوع الجهاد في الإسلام، وما أُشيع مِن مواقف مضادة لمنهج الإسلام في الجهاد في السنوات المتأخرة، ومِن تلك الصُوَر المجانبة للحقيقة في هذا ما يأتي:
- تَقَبُّلُ بعض القائمين بالخطاب الإسلامي الشائعات المضادّة للإسلام، واتهامه بالإرهاب، وتصنيف الجهاد في الإسلام في باب الإرهاب المذموم، فأصبحوا يتنصلون من الجهاد في الإسلام، ويذمونه، مع عِلْم كثيرٍ مِن هؤلاء أن الجهاد ذروة سنام الإسلام ولكنهم ربما لم يَعْلموا الفوارق الجوهرية بين الجهاد في الإسلام وبين التخريب، وقطْع الطريق، والقتل، والتفجير التخريبي العشوائي!.
- وعلى العموم: قد طَرأَ على الخطاب الإسلامي، باختلاف أصنافه، في السنوات الماضية شيءٌ مِن الخلل في الموقف أو في الحديث عن موضوع الجهاد في الإسلام؛ حيث اختلط عند كثيرٍ مِن القائمين بالخطاب الإسلامي الصورتان: (الجهاد في الإسلام كما أراده الله وأَمَرَ به) و(الجهاد في فهم مَن حَرّفه وفي تطبيقاته وسلوكه)؛ إذْ ربما تَرتّب على ذلك وقوع الخطاب في الذمّ للجهاد مطلقاً، حتى يُدخَل فيه الصورة الأُولى، أو المدح للجهاد مطلقاً، حتى يُدْخل فيه الصورة الثانية، الملفَّقة على الجهاد!.
- الوقوع في داء التفرق والتشرذم فيما بين القائمين بالخطاب الإسلامي المعاصر، مما تَرتّبَ عليه إضعافه، وتراجُعه في التأثير والفاعلية.

ثالثاً: وقفة مع صِنْف الخطاب الأول: أمثلةٌ مِن تطبيقاته ومناقشتها:

سأُعنى بهذا الصنف مِن الخطاب، بشيءٍ مِن التركيز؛ لكونه -ببعض تطبيقاته- مُشوِّشاً للصورة المثلى للخطاب الإسلامي المطلوب وَفْق هدي الكتاب والسنّة؛ فيَظنّ مِن لا يُدْرِك الحقيقة أنّ هذا الصنف مِن الخطاب هو الذي يَحْمِل الوجْهةَ الصحيحة للخطاب الديني في الإسلام، ويَظنّ أنه هو الذي يُمَثّل منهج السلف الصالح في فقههم وخطابهم الديني!، ولكن الدليل والواقع لا يؤيدان ذلك.

ولكن، لن أستوعب التمثيل لِمختلَف المجالات مِن الخطاب ومواطِن المآخذ عليه، وإنما أكتفي بالأمثلة الآتية، مقسِّماً الأمثلة لهذا الخطاب إلى قسمين:

- أمثلةٌ مِن الكتابات القديمة.
- أمثلةٌ مِن الكتابات المعاصرة.

أَمثلةٌ مِن الكتابات القديمة:

فيما يأتي عددٌ مِن المقاطِع النصّيّة عن واحدٍ مِن المنتهجين لهذا المسْلك مِن الخطاب قديماً، وهو الإمام الحسن بن على البربهاري، رحمه الله تعالى، وهو مؤلِّفٌ تُوفي سنة ٣٢٩هـ، وكتَب كتاباً سمّاه: "شرح السنّة"، وتناقلتْهُ الأجيال، وتواردتْ على مفاهيمه بدافع الرغبة في الاتّباع وعدم الابتداع، وطُبع الكتاب في هذا العصر عدة طبعات، وقد مثّلتْ مفاهيمُ الكتاب جوانب مِن الحق والصواب، ولكنها إلى جانِب ذلك تضمّنتْ أمثلةً صارخةً للخطأِ في فهم نصوص الكتاب والسنّة، والخطأِ في فهم منهج السلف الصالح؛ فجاءت فيه ظاهرةُ الميل إلى الشدة ظاهرةً، وكذلك ظاهرة الْحَدِّية في تَصوّر الأحكام، والظاهرية، والحرفية، ودَمْغ الرأي المخالف بإصدار الأحكام القاسية عليه، دون تَبيُّنٍ مِن الحكم الشرعيّ في الموضوع!. فكان الكيل للتكفير والتبديع، والإخراج مِن الملة هو المسْلك العامّ له في هذا الكتاب!. فإلى بعض الأمثلة مِن عباراته التي تَحْمِل هذا الطابع مِن الأحكام:

- قال في ص ٣٦-٣٧: "... فلا تتبعْ شيئاً بهواك فتمرق من الدين، فتخرج من الإسلام فإنه لا حجة لك...".

ويُمْكن التساؤل هنا: وهل كلُّ شيءٍ يُسْقِط في النار أو يُخْرِج مِن الإسلام؟ هل

هذا هو منهج الإسلام؟ كلاّ.

- وقال في ص ٣٨: " فمن خالف أصحاب رسول الله ﷺ في شيء مِن أمر الدِّين فقد كفر".

ويُلاحَظ تعبير المؤلف بـ"في شيء مِن أمر الدِّين" و"كفر"!. فهل هذا هو منهج الإسلام! كلاّ!.

ومخالفة الأصحاب رضوان الله عليهم ليست مخرِجةً عن الدِّين بهذا الإطلاق في كل كبيرةٍ وصغيرة وفي المسائل الإجماعية، وغير الإجماعية!.

ثم إنّ هذا الحكم الذي أَصْدره على مخالفة الأصحاب، رضوان الله عليهم أجمعين، مبنيٌّ على تصوّرٍ غيرِ صحيحٍ، وهو تَوَهّمُ أنهم لم يَختلفوا فيما بينهم، وهذا خلاف ما كان في واقعِ الحال!.

- وقال في ص ٣٨ "....فخالفَ الصراط المستقيم، فخرج من الإسلام،...".

ومعلومٌ أنه ليست كلُّ مخالَفةٍ للصراط المستقيم تُعَدُّ خروجاً مِن الإسلام! وفي الإسلام أصولٌ وفروعٌ، ومسائلُ منصوص عليها، ومسائل اجتهادية!.

- وقال في ص٣٨: "... فإن وجدتَ فيه أثراً عنهم فتمسك به، ولا تجاوزْه لشيء، ولا تختر عليه شيئاً فتسقط في النار".

ومعلومٌ، أيضاً، أنّ حجية قول الصحابيّ مختلَفٌ فيها، فضلاً أن تكونَ مخالفةُ الصحابي في أيِّ أمرٍ مهما صَغُر سقوطاً في النار!.

- وقال في ص٣٨-٣٩: "واعلم أن الخروج من الطريق على وجهين، أمّا أحدهما: فرجلٌ زل عن الطريق، وهو لا يريد إلا الخير، فلا يقتدى بزلته، فإنه هالك، وآخر عاندَ الحق وخالف من كان قبله من المتقين، فهو ضال مضل، شيطان مَرِيد في هذه الأمة....".

وليس هذا هو حُكمُ الإسلام فيمن أخطأ وهو لا يُريد إلا الخير، وأنه محكومٌ عليه بأنه هالك على طول!.

وليس حكمُ الإسلام في كل مَنْ خالفَ مَن كان قبله مِن المتقين أنه " ضال مضل،

شيطان مَرِيد في هذه الأمة"!.

- وقال في ص٣٩:"... وهو ضال مضل، محدِثٌ في الإسلام ما ليس فيه".

وهكذا نرى المؤلف، رحمه الله، كيف زَلّ، فاستسهلَ إصدار مثْل هذه الأحكام بالضلال في غير مواضعها في حُكْم الشرع!.

- وقال في ص٣٩:" واعلم رحمك الله أنه ليس في السنة قياس، ولا يُضرب لها الأمثال، ولا تُتّبع فيها الأهواء، وهو التصديق بآثار رسول الله ﷺ، بلا كيف ولا شرح، ولا يقال: لِمَ وكيف"!!.

وهذا جانبٌ مِن الأخطاء في هذا المنهج، وهو التقليل مِن شأن القياس، أو نفْيه، وذلك أَمرٌ طبيعيٌّ فيه؛ إذْ كلما تباعدَ المنهج مِن دائرة الصواب كان مَظِنّةً أن يتباعدَ عن المنهجية السديدة وعن الأسباب الموصلة إليها، كالاجتهاد في الفقه والاستنباط والقياس، بل هذا المسْلك يَصِل إلى أبعدَ مِن ذلك؛ حيث يَستنكِر مجرد شَرْح السنّة؛ إمعاناً في **الاتّباع**، والحقيقة أنّ هذا إمعانٌ في **الابتعاد**، ولو مِن حيث لا يَعرف مَن يَفعل ذلك الفعل!!.

- وقال في ص ٩٢: "...وكفروا مِن حيث لا يعلمون مِن وجوهٍ شتى، ووضعوا القياس...".

وما أشد العجبَ مِن هذه الأحكام الخارجة عن منهج الإسلام يقيناً؛ لأنه ليس في منهج الإسلام أنّ الإنسان يَكْفر مِن حيث لا يَعلم، ومِن وجوهٍ شتى، أيضاً! وليس في منهج الإسلام هذه التسوية بين القياس والكفر!.

- وقال في ص ٩٥: "حتى كفروا مِن حيث لا يعلمون، فهلكت الأمّة مِن وجوهٍ، وكفرتْ مِن وجوه، وتزندقتْ من وجوه، على قول رسول الله ﷺ...".

ومرةً أُخرى وأُخرى نقول: ليس مِن منهج الإسلام، ولا منهج أهل السنّة والجماعة هذا التكفير للناس، وإنباؤهم بأنهم كفروا مِن حيث لا يَعلمون، ولا هذا التكفير للأمّة والرمي لها بالزندقة!!.

- وقال عن كتابه في ص١٠١-١٠٢: "واعلموا -رحمكم الله- أنّ أصول البدع

أربعة أبواب، انْشعب مِن هذه الأربعة اثنان وسبعون هوى، ثم يَصير كل واحدٍ مِن البدع يتشعب حتى تصير كلها إلى ألفين وثمان مئة مقالةٍ، وكلها ضلالة، وكلها في النار إلا واحدةً، **وهو مَن آمن بما في هذا الكتاب، واعتقده مِن غير ريبةٍ في قلبه، ولا شكوك، فهو صاحِب سنّةٍ، وهو الناجي إنْ شاء الله"!!.**

أوّلاً: هذا الحصر والتشعيب للفِرَق والبِدع، ليس عليه دليلٌ شرعيّ، وإنما مجرّدُ تَخرُّص!.

ثانياً: إصدارُ المؤلف هذا الحكم لكتابه، وتزكيته له إلى هذا الحدّ، وجعْله له مقياساً لصاحب السنّة الناجي، الحقيقةُ أنه مِن أغرب ما يَقف عليه الإنسان مِن تعصّبِ المتعصّبين! وهي جرأةٌ قلّ أن يَقف الإنسان على مثلها في غير هذا الكتاب!!. ولنا أنْ نتساءل: وكيف كان الحكم في تفسير هذا الحديث في الأزمنة السابقة على تأليف المؤلف كتابه إذْ لم يكن كتابه موجوداً، وحديث رسول الله ﷺ ساري المفعول منذ نَطق به؟!

- وقال عن كتابه، أيضاً في ص ١٠٢-١٠٤: "**وجميع ما وصفتُ لك في هذا الكتاب، فهو عن الله، وعن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه، وعن التابعين، والقرنِ الثالث إلى القرن الرابع، فاتّق الله يا عبد الله، وعليك بالتصديق والتسليم والتفويض والرضا لِمَا في هذا الكتاب**، ولا تكتم هذا الكتاب أحداً مِن أهلِ القبلة، فعسى يَرُدّ الله به حيرانَ عن حيرته، أو صاحِب بدعةٍ عن بدعته، أو ضالاً عن ضلالته، فينجو به.

فاتّق الله، وعليك بالأمر الأول العتيق، وهو ما وصفتُ لك في هذا الكتاب، فرحم الله عبداً، ورحم والديه قرأ هذا الكتاب، وبثّهُ وعَمِل به ودعا إليه، واحتجّ به، فإنه دِينُ الله ودِين رسول الله ﷺ، فإنه مَن انتحل شيئاً خلاف ما في هذا الكتاب فإنه ليس يَدينُ للهِ بِدينٍ، وقد رَدّهُ كلَّه، كما لو أنّ عبداً آمَنَ بجميع ما قال الله تبارك وتعالى، إلا أنه شكَّ في حرفٍ فقد رَدَّ جميع ما قال الله تعالى، وهو كافر، كما أنّ شهادةَ أن لا إله إلا الله لا تُقبَل مِن صاحبها إلا بصدقِ النِّيَّة وخالِصِ اليقين، كذلك لا يَقبل الله شيئاً مِن السنّة في تَرْك بعضٍ، ومَن تَرك مِن السنّة شيئاً فقد تَرك السنّةَ كلَّها.

فعليك بالقبول، ودَعْ عنْك المَحْكَ واللجاجة، فإنه ليس مِن دينِ الله في شيءٍ،

وزمانكَ خاصّةً زمانُ سوء، فاتّق الله"!!.

ولستُ أَلوم القارئ إنْ ارتعدتْ فرائصُهُ، ووَجِل قلبه، عند قراءته هذا الكلام، وقراءته هذه التزكية العجيبة الغريبة مِن المؤلف لكتابه هذا، ولست أدري كيف مَلَك الشجاعة إلى أنْ يقول: "**فإنه مَن انتحل شيئاً خلاف ما في هذا الكتاب فإنه ليس يَدينُ للهِ بدينٍ، وقد رَدّهُ كلَّه، كما لو أنّ عبداً آمَنَ بجميع ما قال الله تبارك وتعالى، إلا أنه شكَّ في حرفٍ فقد رَدَّ جميع ما قال الله تعالى، وهو كافر**"!!.

الحقَّ أنّ مثل هذا الكلام -مع تقديرنا لفضل الفضلاء والنية الطيبة لأسلافنا وأهل عصرنا- لا يَصحّ أن يَبقى إلا في متاحِف التاريخ؛ ليبقى وسيلةَ إيضاحٍ وتعليم؛ نستخدمه وسيلةً لإفهام الأجيال كيف كان منهج بعض الناس، وكيف كان فهمه، وكيف اختلط عليه الحق بالباطل والخطأ بالصواب؛ بسبب التعصب، وغياب السداد في المنهج، على الرغم مِن صِدْق الرغبة في الحق والصواب!!.

- وقال في ص ١٢٠-١٢٢: "**إذا رأيتَ الرجلَ مِن أهل السنّة رديء الطريق والمذهب، فاسقاً فاجِراً، صاحِبَ معاصٍ، ضالاً، وهو على السنّة فاصْحبْهُ، واجلسْ معه فإنّه ليس تَضرّك معصيته، وإذا رأيتَ الرجلَ مجتهداً-وإنْ بَدَا متقشِّفاً مُحْتَرِقاً بالعبادة- صاحِبَ هوى، فلا تُجالِسْهُ، ولا تَقْعُدْ معه، ولا تَسْمعْ كلامَهُ ولا تَمْشِ معه في طريقٍ، فإني لا آمَنُ أنْ تستحليَ طريقَتَهُ فتَهْلك معه.**

ورأى يونسُ بن عبيدٍ ابنَهُ وقد خَرَجَ مِن عندِ صاحِب هوى، فقال: يا بُنَيَّ! مِن أينَ جئتَ؟. قال: مِن عند فلانٍ. قال: يا بُنَيَّ لأنْ أراك تَخرجُ مِن بيتِ خُنْثَى أَحبُّ إليّ مِن أنْ أراك تَخْرُجُ مِن بيتِ فلانٍ، ولأنْ تَلْقى الله يا بُنَيَّ زانياً سارِقاً فاسِقاً خائناً أَحبُّ إليَّ مِن أنْ تَلْقاه بقولِ فلانٍ وفلانٍ.

ألا تَرى أنّ يونسَ بن عبيد عَلِمَ أن الخنثى لا يُضِلُّ ابنَهُ عن دِينه، وأنّ صاحِبَ البدعة يُضلُّه حتى يُكَفِّرَهُ!".

وهذا الكلام مِن البعد عن الجادة وعن المنطقية وسداد المنهج بحيث لا يَستطيع كثيرٌ مِن الناس أن يَقعوا فيه، ويَسقطوا في هوّته!!.

وإذا كان هذا هو المنهج، وهذه هي قاعدته؛ فماذا ستكون ثماره ونتائجه!!.

إنه لربما خطرَ بالبال أنّ المفترَض في المطابع -وهي جماد- أن تأبى أنْ تطبع مثل هذا الكلام!.

والإسلام أَوضحُ مِن أنْ يُظنّ أنه هو هذا المسْلك الذي ليس له في العقل والفطرة مَسْلك!!.

والحقُّ أنني أستحيي أن أنْقل مثل هذا الكلام، وترددتُ كثيراً في نقْله، ولكن، اضطررتُ إلى نقله؛ لبيان الحقيقة؛ ولاستنهاض همم الفضلاء، الراغبين في تمحيص المنهج، واختيار الحكمة التي أَمر الله بها في تقديم الإسلام إلى الآخرين، ولَفْت أنظار القائمين بالخطاب الإسلامي إلى هذا الخلل في الخطاب!!.

- وقال في ص ١٢٢: "واحذرْ ثم احذرْ أهلَ زمانك خاصّةً، وانظرْ مَن تُجالِس، ومِمّن تَسمع، ومَن تَصحب، فإنّ الخلْقَ كأنّهم في رِدّةٍ إلا مَن عَصمَ الله منهم".
- وقال، أيضاً عن كتابه في ص ١٣٢: "**فَمَنْ أَقرّ بما في هذا الكتاب، وآمَنَ به، واتّخَذَهُ إماماً، ولم يَشكّ في حرفٍ منه، ولم يَجحد حرفاً واحداً، فهو صاحِبُ سنّةٍ وجماعةٍ، وكاملٌ، قد كَمُلتْ فيه السنّة، ومَن جحدَ حرفاً مما في هذا الكتاب، أو شَكّ في حرفٍ منه، أو شَكّ فيه، أو وَقَف، فهو صاحِبُ هوى، ومَن جحد أو شَكّ في حرفٍ مِن القرآن، أو في شيءٍ جاء عن رسول الله ﷺ، لقي الله تعالى مُكَذِّباً، فاتّقِ الله، واحذرْ، وتَعاهدْ إيمانَك**"!!.

وهذه كارثةٌ أُخرى توصِل المؤلفَ رحمه الله إلى رفع كتابه إلى هذه الدرجة التي يبدو منها أنه يُنافِس مكانة كتاب الله تعالى، ولم أرَ في تاريخ الإسلام مِن الأئمة والعلماء والعبّاد مَن أوْصل كتابه إلى مثل هذا المقام، ومَن اعتقد في منهجه هذه العصمة!!.

والتساؤل الذي يُلِحّ هنا على أيِّ قارئ على السداد في التفكير هو: وأين جُهْد الأجيال عَبْرَ القرون، وخلال هذا العصر الحاضر، تجاه تَغْليط هذا الغلط أو هذه الأغاليط، وردِّ هذا النمط، وتصحيح المسار!! ولماذا مَلك الناس هذه الشجاعة على ترديد هذه الأخطاء ونشرها مِن جديد مرةً بعد مرّة!!.

تلك أمثلةٌ مِن هذا الكتاب، وبها يتّضح سِماتُ هذا الصنف مِن الخطاب، وبعض تلك الأمثلة صارخٌ مثيرٌ لحفيظة عقل الحكيم، كجعْل المؤلف كتابه في مقام كتاب الله

تعالى -بحسب دلالة عباراته- وتأكيده على هذا المعنى في عدة مواضع.

وفي عصرنا قَلَّد المقلِّدون الإمام البربهاري في أخطائه، فبدلاً مِن المراجعة والتصحيح تناقلَ بعض الناس تلك الأخطاء باعتبارها الحق والصواب الذي يَدعو إليه كثيرٌ منهم، وأصبحتْ هي سِمةَ هذا الصنف مِن الخطاب الديني، على ما يَظهرُ في الأمثلة التي سأُوردها لتطبيقاته المعاصرة.

لقد ظهرتْ في عصرنا مؤلفات كثيرةٌ تتبنّي ذلك المسلك مِن الخطاب، المشار إليه آنِفاً، وتَغلو فيه، وتوالي عليه وتُعادي، بل تُرَكِّز على نَشْر هذه المنهجية بين المسلمين!.

أمثلةٌ مِن الكتابات المعاصرة:

هناك أمثلةٌ متعددةٌ ومتنوعة، يتّضح بها طبيعة هذا الصنف مِن الخطاب في عصرنا.

ومِن طبيعة هذا الصنف مِن الخطاب: عدمُ الميل إلى التعمق العلمي والفكري، ومجافاة الاتّجاه إلى التجديد، بصفةٍ عامّة، ومجافاة العناية بالاجتهاد في مستجدات العصر، وفِقْه الإسلام فقهاً معاصِراً؛ حتى لقد كتَب بعضهم -مثلاً- لإثبات أنّ (الأدلة قطعية على أنّ وسائل الدعوة توقيفية)؛ فيعارِض التجديد فيها مطْلقاً!.

وقد يميل هذا الخطاب إلى تقديس اجتهادات الأئمة القديمة، ولو لم تكن إجماعاً!.

وكذلك الغلوّ في بعض المسائل الفرعية أكثَرَ مما أعطاها الإسلام بحسب دلالة مجموع نصوص الكتاب والسنّة، والموالاة عليها والمعاداة!.

وكذلك ربما مالَ إلى عدم العناية بالتثبت في النقل.

وكذلك عدم العناية بالعلاقات الطيبة بين المسلمين، وعدم العناية بموضوع الأخلاق، وتصوّر الانفصال النّكِد بين العقيدة والأخلاق والسلوك، وتمريره بحجّة العناية بالعقيدة والدعوة إليها، وبحجّة الاتّباع وعدم الابتداع، والتركيز على تصنيف المسلمين وتَحزيبهم.

ومِن الأمثلة المعاصِرة **ما قاله خطأً رجلٌ فاضل دعا إلى هذا المنهج لتأكيد تطبيقه -بحسَب النصّ الآتي- فقرّر الأساليبَ الآتية:**

«الأصل في الهجر هو: الإعراض بالكلية عن المبتدع والبراءة منه.

ومن مفرداته:

- عدم مجالسته.
- الابتعاد عن مجاورته.
- ترك توقيره.
- ترك مكالمته.
- ترك السلام عليه.
- ترك الاحتكاك به في العمل.
- ترك التسمية له.
- عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام.
- عدم سماع كلامهم وقراءتهم».
- «بغْضه، وإظهار البغض والعداوة له.
- تجنُّب القراءة له»[٦].

إلى آخر ما هنالك مِن أساليب تعميق هذه المنهجية الغريبة بين المسلمين باسم الكتاب والسنّة، وباسم اتّباع السنّة، وباسم منهج أهل السنّة والجماعة!.

وإنْ كنت لا أظنّ قائلَ هذا القول المنقول آنفاً إلا أنه قد رَجعَ عنه، ونَقَضَه – مشكوراً– ببعض كتاباته اللاحقة بعده، إلا أنّ ذلك لم يُغَيّر عند مَن يَسْلك هذا المسْلَك شيئاً، وبقي مثل هذا النصّ مستَنداً لهم، في خطابهم الديني لا يكادون يَستغنون عنه، حتى بعد اختلافهم مع الرجل الفاضل الذي أخطأ هذا الخطأ!.

والمشكلة كل المشكلة أنّ تصنيف المسلمين تصنيفاً أغلبياً بأنهم مبتدِعة أمرٌ ليس عن بَيِّنةٍ، وإنما بالظنون والتوهمات!.

ثم يُطَبَّق في التعامل معهم أصول التعامل مع المبتدع المقرَّرة في ذلك المنهج!.

ولهذا اتّجهَ هذا النوع مِن الخطاب –كما قلتُ– إلى الدعوة إلى إشاعة أُسلوب

(٦) هجر المبتدع، فضيلة الشيخ بكر أبي زيد، ص ١٧ .

الشدة والغلظة في التعامل بين المسلمين، والتقاطع والتدابر، وانتهاج منهج الجفاء، والحرص على إصدار الأحكام على الناس، وعلى نيّاتهم، واستباحةِ إيذاء المسلم بمختلف صور الإيذاء، واستباحة لعْن المسلم، كل ذلك باسم محاربة البدعة والمبتدعين؛ **حتى إنّ بعضهم هَجر ذوي رحِمِهِ الذين أَمره الله بعدم قطيعتهم، بل إنّ بعضهم هَجر أباه وأُمّه! مع أن الله تعالى أَمره أن يُصاحبهما معروفاً وإنْ كانا كافرَين!**.

ومما يؤسَف له أنْ نحتاج اليوم إلى إيراد الأدلة والشواهد على منهج الإسلام في هذه البدهيات، التي عَكَسَ فيها هذا المنهجُ المخطئ فقه الإسلام، ومنهجية الإسلام فيها!.

فالسلام والتحية، والمحبة والإخاء، والبشاشة، وحسْن الظن، ومخالطة الناس والتعاون معهم على الخير والمعروف، وحُسْن المعاملة، كلها أُمورٌ تُعَدُّ مِن بدهيات الإسلام، التي يُربي عليها أتباعَه؛ فكيف تُعْكس في مثل هذا الخطاب الديني!!.

المبحث الثاني
إشكالات الخطاب الإسلامي اليوم

مِن أهمِّ إشكالات الخطاب الإسلامي اليوم الآتي:

١- الإخلال بخصائص الخطاب الإسلامي كما جاءت في الخطاب النبويّ، فيَحصل الخلل في الخطاب الإسلامي المعاصر بسبب الإخلال بواحدٍ أو أكثر مِن أُسس الخطاب الإسلامي في مختلف مجالاته: العقدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، المحلية والدولية.

٢- الكثير مِن العقبات التي تواجه الخطاب الإسلامي اليوم هي ناشئةٌ مِن أخطاء القائمين بالخطاب نفسه، التي نشأتْ مِن مجانبة معالم الخطاب الإسلامي كما جاء في القرآن والسنّة النبوية، ولا يُمْكن تجاوز هذه العقبات إلا بالعودة إلى منهج الخطاب الإسلامي في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ. فليس الأمر كما يتوهم عددٌ مِن المسلمين في هذا العصر بأنّ السبب في تلك العقبات كلها هم الأعداء.

٣- عدم وضوح أهداف الخطاب لدى بعض المسلمين.

٤- عدم الإلمام بآلية الخطاب الناجحة.

٥- عدم الإلمام بأسلوب الخطاب الناجح.

٦- عدم الفقه الشرعي الصحيح للقضايا الإسلامية، وَفْق مقتضيات العلاقات الإسلامية بالآخرين في هذا العصر، وبالتالي يَعُودُ هذا بكثيرٍ من السلبيات في الخطاب الإسلامي.

٧- ظاهرة الْحَدِّية، في غيرِ موضعها الشرعيّ، في فقه بعض المسلمين للإسلام، وتَجاهُل مبدأ الاجتهاد في الإسلام، وآثاره الإيجابية في التعامل مع الآخرين بأخلاق الإسلام ومبادئه، ولو كانوا مخالفين له.

٨- النظرة بعدم اكتراثٍ إلى الاحتكام للقِيَم الإسلامية، والقيود الإسلامية، مِن بعض فئات المجتمعات الإسلامية، والرغبة في الانفلات مِن ربقة تلك القيم والقيود.

٩- عدم الفقه الشرعي الصحيح لطبيعة علاقة المسلم بإخوانه المسلمين، والتعامل المطلوب معهم.

١٠- عدم الفقه الشرعي الصحيح لمسألة الخلاف مع الآخرين: مسلمين وغير مسلمين، وطبيعة التعامل المطلوب مع مسائل الخلاف والمخالفين له.

١١- تفرُّق الخطاب الإسلامي على نفسه، والإشكالات القائمة في الخطاب الإسلامي فيما بين المسلمين أنفسهم، المعيقة عن التواصل السليم، والعلاقات الأخوية بينهم. ومِن ذلك ظاهرة الاتهامات المتبادَلة فيما بين مختلف المناهج، كالاتهامات غير المنصِفة التي تُساق باسم ذمّ ما يُسمّى بالوهابية، والاتهامات الغالية لمناهج التصوف، والاتهامات المتبادلة بشأن الظاهرية وعدمها، وبشأن التأويل وعدمه، وما إلى ذلك مِن المسالك. ومِن ذلك: ظاهرةُ النقد العامّ لِما أُطلِق عليه مصطلح: "دعاة النهوض بالخطاب الإسلامي المعاصر"، أو: "القائمون بالخطاب الإسلامي المعاصر"، هكذا بالإطلاق، دون تحديدٍ علميّ للمراد، أو المنقودين!. مع أنّ الداخلين في دلالة هذا المصطلح كثيرون، وليسوا سواءً، وليسوا على معنى واحد، ولا على منهجٍ واحدٍ!!.

١٢- أَثَرُ حياة الفراغ والسلبية التي يعيشها بعض المسلمين؛ فينطلقون مِن تلك الحال في فقههم، وفي فهمهم للدين وشؤون الحياة، وفي أخلاقيات المعاملة والحوار، وما إلى ذلك.

١٣- أَثَرُ التعصب المذهبيّ في الخطاب الإسلامي اليوم، في مختلف المجالات، سواءٌ في مجال فقه الدِّين، أو التعامل مع الآخرين، أو التواصل مع الموافقين والمخالفين، أو المواءمة بين المحافظة على الأصول والتحديث المشروع المطلوب، أو الاجتهاد والتقليد، أو فقه الدعوة، أو التعامل مع مستجدات المسائل، وما إلى ذلك.

١٤- الغلو في الأشخاص، وأثره في الخطاب وهو مظهرٌ من مظاهر التعصب المذهبيّ.

١٥- تَصدِّي غير ذي الأهلية للخطاب الإسلامي اليوم.

١٦- تصديق الشائعات عن الإسلام والمسلمين والخطاب الإسلامي بالاتهام

بالإرهاب والتطرف.

١٧- أخطاء المخالفين مِن غير المسلمين في طبيعة تعاملهم مع المسلمين وقضاياهم.

أسباب الوقوع في هذه الإشكالات:

الأسباب كثيرة، ومِن أهمها:

- عدم الفقه الشرعي الصحيح لمسألة الخلاف مع الآخرين: مسلمين وغير مسلمين، وطبيعة التعامل المطلوب مع مسائل الخلاف والمخالفين له.
- ضعْف القابلية للحوار لدى عددٍ مِن القائمين بالخطاب الإسلامي.
- تَصدِّي غير ذي الأهلية للخطاب الإسلامي اليوم.
- تصديق الشائعات عن الإسلام والمسلمين والخطاب الإسلامي بالاتهام بالإرهاب والتطرف.

أخطاء المخالفين مِن غير المسلمين في طبيعة تعاملهم مع المسلمين وقضاياهم.

المبحث الثالث

معالم الخطاب النبوي مِن خلال أحاديثه ﷺ

لاشك أنّ في أحاديث رسول الله ﷺ، الْمُهْتدى والأُسوةَ للخطابِ الإسلامي اليوم، سواءٌ في أقواله ﷺ، أو في أفعاله وتصرفاته مع الآخرين: تعاملاً ودعوةً، مخاطبةً ومكاتبةً، مع المسلم ومع غير المسلم.

ويُمْكن الإشارة إلى هذا بإيراد بعض النماذج عنه ﷺ في عدةِ فقرات، هي:

أَوّلاً: الأحاديث القولية، المتعلقة بصورةٍ مباشِرةٍ بالقول والكلمة أو الكلام.

ثانياً: الأحاديث المشتملة على مخاطبة الرسول ﷺ لغيره: المسلمين، وغير المسلمين، أو الموافقين والمخالفين.

ثالثاً: الأحاديث المشتملة على مكاتبة الرسول ﷺ لغيره: المسلمين، وغير المسلمين، أو الموافقين والمخالفين.

رابعاً: رصْدٌ لنتائج الخطاب النبويّ وآثاره الحسنة في الآخرين.

وها هو الكلام عن هذه الفقرات:

أوّلاً: الأحاديث القولية، المتعلقة بصورةٍ مباشِرةٍ بالقول والكلمة أو الكلام، ومِن هذه الأحاديث ما يأتي:

ليس بالإمكان هنا حصْر الأحاديث النبوية المتعلقة بصورةٍ مباشِرةٍ بالقول والكلمة أو الكلام؛ ولكن، سأشير إلى بعض الأحاديث، فمنها:

١- **الأحاديث** في أَمْره ﷺ بالتزام الصدق، والإلزام به، والحث عليه، وتحريم الكذب.

٢- قوله ﷺ الحديث: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[٧]، وقد قال الله تعالى: (ما يَلفِظ مِن قولٍ إلا لديه رقيبٌ

(٧) البخاري، برقم ٦٤٧٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عتيد)[٨]!.

وفي هذا تحميلُ الإنسان مسؤولية كلمته؛ فلا يَصح له أن يُلْقي الكلام دون مسؤولية.

٣- جعل الكلمة الطيبة صدقة، (الكلمة الطيبة صدقة)، (اتّقوا النار ولو بشقّ تمرة)،...إلى آخر الأحاديث في هذا الباب.

٤- جعل الكلمة وسيلةً للهداية، ورَتّب عليها الأجر العظيم، ولم يأذن الإسلام للمسلم والمسلمة في أن تكون الكلمة وسيلةً للإضلال،...

٥- وقال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت...)[٩].

٦- وكان ﷺ تُعْجبه الكلمةُ الطيبةُ، ففي الحديث عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: (لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ **وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ: الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ، الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**)!.

إن هذا مبدأٌ إيجابيٌّ، وأُسوةٌ حسنةٌ في سيرة رسول الله ﷺ، وهو مبدأٌ ذو أَثرٍ إيجابيٍّ عظيم في الأخلاق والسلوك وفي الخطاب إذا ما أَخذ به المسلم والمسلمة، وطَبّقاه في واقع حياتهما!.

٧- قوله ﷺ: (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ على شَيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ! أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ)[١٠].

٨- ما جاء مِن النصوص الشرعية، كتاباً وسنّةً، في بيان أحب الكلام إلى الله تعالى.

٩- جَعَل الإسلامُ قتالَ المسلم كفراً، وسِبابَهُ فسوقاً: فعن سَعْد بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قِتَالُ الْمُؤْمِنِ كُفْرٌ، وَسِبَابُهُ فُسُوقٌ، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ)[١١].

---

(٨) ١٨: ق: ٥٠.

(٩) البخاري، برقم ٦٤٧٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠) مسلم، برقم ٩٣، عن أبي هريرة.

(١١) أحمد، ١٥٢٢. وفي سنده عمر بن سعدٍ، وثّقه العجلي وحده، ولكن يشهد لقوله: (قِتَالُ الْمُؤْمِنِ كُفْرٌ، وَسِبَابُهُ فُسُوقٌ) حديث ابن مسعود السابق.

١٠-**عَنْ** أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟) قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا: مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: (إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)[١٢].

١١-وقَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ فَاحِشاً وَلا مُتَفَحِّشاً، وَقَالَ: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقاً...)[١٣].

١٢- قد جاء في القرآن الكريم وَصْف اللهِ لرسوله ﷺ بقوله: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِن اللَّـهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)**[١٤].

وينبغي أن لا يفوت المسلم الحريص على الخير وعلى الاهتداء بهدي رسول الله ﷺ تدبُّرُ هذه الآية وما فيها من توجيهات، ومن ذلك ما يلي:

- الإشارة إلى أنّ الرسول ﷺ كان ليناً مع الناس في تعامله ودعوته.
- أنّ ذلك اللِّين كان برحمةٍ من الله تعالى.
- أنّ عاقبة اللِّين في التعامل والدعوة عاقبة حسنة، بخلاف عاقبة الغلظة والفظاظة، فقد أخبر الله أنه لو كان الرسولُ فظاً لانفضُّوا من حوله، ولم يجتمعوا عليه، ويقبلوا دعوته.
- أنّه سبحانه وتعالى قد وجّه رسوله ﷺ، بعد هذا كله، بهذه التوجيهات الإلهية: **(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)**.
- وكل هذه الهدايات تَرُدُّ ذلك المسلك الخطأ؛ لأنه بعكسها في كل ذلك.

---

(١٢) مسلم، ٢٥٨١، البر والصلة والآداب، والترمذي، ٢٤١٨، صفة القيامة، والمسند، ٨٠٢٩، ٢/ ٣٠٣، و٨٤١٤، ٢/ ٣٣٤، و٨٨٤٢، ٢/٣٧٢.

(١٣) البخاري، ٣٧٦٠، المناقب، ومسلم ٢٣٢١، الفضائل.

(١٤) ١٥٩: آل عمران: ٣.

- ولا يَصِح أن تُقام معارَضةٌ بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**[١٥]، فإنّ هذا في القتال وحال الحرب.

وهذه الآية الكريمة، وتلك الأحاديث: دليلٌ قاطعٌ على أنّ ذلك المسلك الخطأ في طريقة الدعوة إلى اتّباع الكتاب والسنّة، المنتهج أسلوبَ الشدة والفظاظة ليس مسلكاً مقبولاً شرعاً، وليس مُعَبِّراً عن شرع اللهِ؛ بدليلِ أنّه مخالِفٌ لهدى النبي ﷺ الوارد في هذه الأحاديث الصحاح وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها.

وهذه النصوص الشرعية وأمثالها اشتملت على الدعوة بأساليب ووسائل متعددة إلى حُسْن اختيار الكلام، وإلى تأسيس الخطاب الإسلامي دائماً على ما يُحقق الصلاح والإصلاح وحُسْن العلاقة بين الناس جميعاً، ورعاية أُسس الخطاب الإيجابي السليم.

١٣-بل ذهب المنهج النبوي في التأسيس المنهجي للخطاب الإسلامي إلى أبعدَ مِن تلك التعليمات السابق ذكرها، حيث جاء النهي عن شتم العاصي الْمُقام عليه الحدّ ولعْنه:

جاء في البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: (اضْرِبُوهُ). قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ. قَالَ: **(لا تَقُولُوا هَكَذَا، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ)**[١٦].

١٤-وفي البخاري: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلاً على عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَاراً، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ **قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْماً، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ؛ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ: إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)**[١٧]؛ فجَعَل عِلْمه عنه بأنه يُحِب الله ورسوله مانعاً مِن لَعْنه على معصيته

---

(١٥) ١٢٣: التوبة: ٩.

(١٦) البخاري، ٦٧٧٧، الحدود.

(١٧) البخاري، ٦٧٨٠، الحدود، والمعنى: أي: الذي أعلمه أنه يحب الله ورسوله. و(ما) هنا موصولة وليست نافية. انظر: فتح الباري، ٢/٧٧-٧٨.

التي أوجبتْ عليه الحدَّ، إنها سماحة الإسلام، وعدالته، ورحمته!.

١٥-ونَبّه الرسول ﷺ على أَثر كلام الإنسان في الخصومات، وأنّه قد يكون سبباً في أَخْذ حقِّ غيره، أو سبباً في تفويت حقِّ نفسه، على ما جاء في تحذيره مِن استباحة أموال الناس بسبب تضليل مَنْطِقِهِ للقاضي، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ وَأَقْضِيَ لَهُ على نَحْوِ مَا أَسْمَعُ؛ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلا يَأْخُذْ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ)[١٨].

١٦-وحذّرَ رسول الله ﷺ مِن كثرة مخاصمة الإنسان للناس، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: (إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى اللَّهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ)[١٩].

١٧-عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ)[٢٠].

وفي لفظ: (لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً)، وفي لفظٍ عند مسلمٍ زيادة: (كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ)[٢١].

١٨-وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ، يَلْتَقِيَانِ؛ فَيَصُدُّ هَذَا، وَيَصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ)[٢٢].

---

(١٨) البخاري، ٦٩٦٧، الحيل، و٧١٨١، الأحكام، ومسلم ١٧١٣، الأقضية.

(١٩) البخاري، في مواضع، منها: ٢٤٥٧، المظالم والغصب، ومسلم، ٢٦٦٨، العلم، وغيرهما.

(٢٠) البخاري، ٦٠٦٥، و٦٠٧٦، الأدب، ومسلم ٢٥٥٩، كما أخرجه عن أبي هريرة، بلفظٍ آخر، البر والصلة والآداب، والترمذي، ١٩٣٥، البر والصلة، وأبو داود، ٤٩١٠، الأدب، ومالك، ١٦٨٣، وقال: "لا أَحْسِبُ التَّدَابُرَ إِلا الإِعْرَاضَ عَنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ، فَتُدْبِرَ عَنْهُ بِوَجْهِكَ"، وأحمد، ١٣٠٥٣، و١٣٣٥٤، كما أخرجه عن أبي هريرة، ٧٨٧٥، و٩٠٥١، و١٠٢٥١، و١٠٧٠١، بزيادة في الموضع الأخير والذي قبله بموضعين، وأخرجه في مواضع أخرى.

(٢١) مسلم، ٢٥٥٩، البر والصلة والآداب.

(٢٢) البخاري، ٦٢٣٧، الاستئذان، ومسلم، ٢٥٦٠، البر والصلة والآداب. وَذَكَرَ سُفْيَانُ-أحد

هذا هو خيرهما في حكم رسول الله ﷺ: (وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ)، لا ما يوهمه الشيطانُ الإنسانَ!.

ومَن حصلت بينه وبين أخيه قطيعة فمَرَّت ثلاث ليال، أو ثلاثة أيام، فقد أرشده ﷺ إلى الحلّ، وهو ما في قوله: (لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِناً فَوْقَ ثَلاثٍ، فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاثٌ فَلْيَلْقَهُ؛ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ؛ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ) زَادَ أَحْمَدُ-أحد الرواة-: (وَخَرَجَ الْمُسَلِّمُ مِنَ الْهِجْرَةِ)[٢٣].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لا يَكُونُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ مُسْلِماً فَوْقَ ثَلاثَةٍ، فَإِذَا لَقِيَهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ ثَلاثَ مِرَارٍ، كُلُّ ذَلِكَ لا يَرُدُّ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ)[٢٤].

وفي الحديث عنه ﷺ: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ؛ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً، إِلا رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ؛ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا). وفي لفظٍ: (إِلا الْمُتَهَاجِرَيْنِ)، وفي لفظٍ: (إِلا الْمُهْتَجِرَيْنِ)[٢٥].

أرأيت -أيها المسم- كيف رَبَط الله بين قبول العبد عنده وبين علاقته بأخيه المسلم!.

أرأيت كيف يُغْفر للعبد ذنوبه التي دون الشرك، ما لم يكن بينه وبين أخيه شحناء!.

أرأيت كيف قارب الله في المسافة بين مشاحنة الأخ لأخيه وبين الشرك بالله!.

أرأيت إلى أي شيءٍ يدعوك مَن يدعوك للهجر، وإلى تطبيق عقوبة الهجر بين المسلمين!.

إنه يَدعوك إلى ما نهاك الله عنه!.

رواته- أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وأخرجه أحمد، ٢٣٠١٧، و٢٣٠٦٤، و٢٣٠٧٣.

(٢٣) أبو داود، ٤٩١٢، الأدب. وفي بعض رواته ضعف، لكن، يشهد لمعناه بقية أحاديث الباب.

(٢٤) أبو داود، ٤٩١٣، الأدب، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢٥) مسلم، ٢٥٦٥، البر والصلة والآداب، والترمذي، ٢٠٢٣، البر والصلة، وأبو داود، ٤٩١٦، الأدب، وأحمد، ٧٥٨٣، ومالك، ١٦٨٦، الجامع.

إنه يَدعوك إلى ما حذَّرك الله منه!.

فكيف يَدعوك إلى ذلك باسم الدين، أو باسم الكتاب والسنّة!. أو باسم اتّباع منهج السلف الصالح!.

إنه يَدعوك إلى ما لم يُحِلَّهُ الله!.

إنه يَدعوك إلى ما يُدْخلك الله به النار على ما أَخبر به الصادق المصدوق ﷺ!.

إنّ مجموع هذه الأحاديث السابق ذكرها يَدُلُّ على ما اشتملت عليه من معانٍ فعّالة في الخطاب الإسلامي، بما قررته من تعليماتٍ وتوجيهات، وما دعتْ إليه من الوصْل وعدم الهجر، وحُسْن العلاقة، وحُسْنِ المعاملة بين الناس، وتطييب الكلام.

هذه إشارةٌ إلى هذه المجموعة مِن أحاديث رسول الله ﷺ، وما فيها مِن هدايات، وتوجيهاتٍ للخطاب الإسلامي كيف ينبغي أن يكون، وهي مَعْنِيٌّ بها: المسلم والمسلمة، أفراداً ومجتمعات، وهيئاتٍ ومراكز ودُولاً. وينتقل الكلام بعدها إلى المجموعة الثانية مِن الأحاديث النبوية.

ثانياً: الأحاديث المشتملة على مخاطبة الرسول ﷺ لغيره: مسلمين، وغير مسلمين، موافقين ومخالفين:

قرر الرسول ﷺ بأحاديثه وسيرته منهج الإسلام في التعامل مع غير المسلمين، وكان لخطابه معهم خصائصُ أَثّرتْ تأثيراً حسناً في سلوكهم واستجابتهم لنداء الحق والفطرة.

وذلك في مختلف ظروف التعامل مع غير المسلمين، ومختلف المواقف.

وعلى الرغم مِن أنّ هناك فارقاً بين مواقف السِّلم ومواقف الحرب، إلا أنّ الخطاب النبوي جاء قدوةً ومثلاً رائعاً في بيان هدْي الإسلام وتطبيقه في التعامل مع غير المسلمين في مختلف المواقف والظروف.

وهنا ملحوظة مهمّة، وهي: إنّ ما جاء في الخطاب النبوي، والتعامل النبوي مع غير المسلمين في حال السِّلم يُمَثِّل المنهج العام للإسلام في تعامله مع غير المسلمين، ولا يُعارِضُه بحالٍ ما جاء عنه ﷺ في تعامله معهم في حال الحرب.

فليس الجهاد في الإسلام مناقضاً لمنهج الإسلام في غير وقت الحرب والقتال؛ وذلك لأسبابٍ، منها:

أ- لأنّ لكل مقامٍ مقالاً.

ب- ولأن المسلمين ليسوا ممنوعين مِن الدفاع عن أنفسهم، والتعامل مع مَن يتعامل معهم بالسلاح، لكنهم يَلتزمون بالمبادئ والقِيَم حتى في حال القتال. وهذا مِن حقِّ كلِّ شعبٍ مِن الشعوب، ولم يَقل أحدٌ في التاريخ بأنّ شعباً ما ليس مِن حقه الدفاع عن نفسه، وأنّ عليه أن يستسلِم لكل معتدٍ وغاصبٍ؛ وإلا فإنه يكون مجرَّماً وظالِما لو دافع عن نفسه!!.

ومِن الأمثلة للخطاب النبوي لغير المسلمين النماذج الآتية:

النموذج الأول مِن حديثه ﷺ في خطابه لغير المسلم:

حديث اتفاق صلح الحديبية، الذي وردَ فيه استقبال النبي ﷺ لسهيل بن عمرو، وقد اشتمل على أشياء مِن سُموِّ الخطاب الإسلامي النبوي، وقد جاء بألفاظٍ في الصحيحين، منها الحديث الطويل الذي ساقه البخاري في قصة صلْح الحديبية بين الرسول ﷺ ومشركي قريش.

فقد اشتمل الحديث على أمثلةٍ لطبيعة الخطاب الإسلامي في أقوال الرسول ﷺ وكلامه مع كلٍّ مِن المسلمين وغير المسلمين، مِن ذلك ما يأتي:

- قوله ﷺ: (مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ)، فيه حُسْن الكلام حتى في حق الحيوان، ودَفع القول الخطأ بشأنه، ورَدّ الذم له بغير حقٍّ!.
- قوله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا)، فيه: إعلانُ مبدئه وخطّتهِ ﷺ في هذه القضية، وإحاطة أصحابه بها. والكلام يقرِّر أنه سيوافق المشركين على أيِّ خطةٍ فيها تعظيمٌ لحرمات الله تعالى، فليس في منهج خطابه ﷺ أنه يَنسِف أيَّ شئ يدعوه إليه المشركون!.

- قوله ﷺ: (إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ على أَمْرِي هَذَا حتى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ)، فيه: وضوح المبادئ، وإعلانها في الوقت المناسب، وبالأسلوب الحكيمِ بعيدِ النظر، والإصرار على المبدأ والعقيدة والثبات عليهما، والشجاعة والحكمة معاً.
- قول عروة بن مسعود -أحد المفاوضين عن مشركي قريش-: " أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي، لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ"، يُعَدّ هذا مِن سُموِّ الأخلاق، ويُعدّ تطبيقاً لمبدأٍ أقرّه الإسلام، ونادى به، وهو حفظ المعروف، ومكافأة صاحبِهِ، حتى في الكلام ومجرّد الخطاب، فهو مِن الأخلاق الفاضلة لدى أهل الجاهلية، التي أقرّها الإسلام!. وهذه مِن إحدى خصائص الخطاب الإسلاميّ، فإنّه يَمدح الممدوح مِن الأخلاق، حتى ولو جاء مِن سلوكيات غير المسلم، كما أنه يَذمّ المذموم مِن الأخلاق، حتى لو جاء مِن سلوكيات المسلم!.
- قوله ﷺ: (أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيءٍ)، فيه: تقديم هداية الناس على المال، وتفضيل هداية الناس إلى الحق على جباية أموالهم.
- قوله ﷺ: (هَذَا فُلاَنٌ، وَهْوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ). فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ...الحديث. وهذا فيه: الحكمة في اختيار الأسلوب المناسب في التعامل مع المخالفين، وفيه العناية بأسلوب التفاوض، واستثمار إيجابيات الناس، ومخاطبة الناس مِن بوابة العواطف العاقلة، والمشاعر الطيبة، لا مِن بوابة التهديد وفَرْض الحق والمبادئ.

- قوله ﷺ: (هَذَا مِكْرَزٌ وَهْوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ)، وقوله ﷺ لَمّا جاءهم سهيلٌ بن عمرو: (لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ)، فيه: معرفة الرسول ﷺ بالناس وطبائعهم، والطرق المناسبة في التعامل معهم، والتفريق بين أصحاب الصفات السلبية منهم، وبين أصحاب الصفات الإيجابية، ومعاملة كلٍّ منهم بما يستحقه، حتى ولو لم يكونوا مِن المسلمين.
- محاورة الرسول ﷺ مع سهيل بن عمرو، وما حَمَلتْه مِن دلالات في باب السماحة، والمرونة المناسبة لتحقيق الأهداف والمقاصد الطيبة التي يسعى لها المسلمون، وفيها التنزّل المناسب مع المخالف، بما لا يَضر الأهداف المنشودة، وإنما بما يُسْهِم في تحقيقها.
- شروط الصلح ودلالاتها في إيضاح المنهج الإسلامي في مسألة العلاقات مع غير المسلمين، ومسألة أسلوب الدعوة إلى الإسلام، وأنّ القضية قضية عَرْضٍ لا فرْضاً، وعواقبها على مستقبل الإسلام، وعلى الرغم مما كان يَبدو مِن كونها جائرة في حق المسلمين، إلا أنّ الرسول ﷺ كان حكيماً بقبولها، وكان بعيد النظر في ذلك، وكان نظره محيطاً بما ستؤول إليه هذه الشروط، وأنها ستكون في النهاية انتصاراً لدينه، وإظهاراً للحقيقة التي اتّضحتْ للناس بعد ذلك، وهي أنّ العقائد لا تَقبل الفرض، ولا يَكسرها القوة!.
- قوله ﷺ: (فَأَجِزْهُ لِي)، فيه حِرْص الرسول ﷺ على رعاية مصالح المسلمين، والشفقة عليهم، وبذْل الوسْع في تحصيل مصالح أفرادهم، فإذا استنفد الوسْع ولم يتمكّن مِن تحقيقها قَدّم مصلحة المسلمين العامة ومصلحة الإسلام.
- الحوار بين الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب، ودلالاته في منهجية الإسلام في التفاؤل واليقين بوعد الله، ولك أن تتأمّل ذلك الحوار كما جاء في الحديث: "فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا! قَالَ: (بَلَى). قُلْتُ: أَلَسْنَا على الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا على الْبَاطِلِ! قَالَ: (بَلَى). قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا! قَالَ: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهْوَ

نَاصِرِي). قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ؛ فَنَطُوفُ بِهِ! قَالَ: (بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ). قَالَ: قُلْتُ: لاَ. قَالَ: (فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ)"، ففيه: حِلْمه ﷺ على مخالِفِهِ مِن الأصحاب، وعِلْمه ﷺ بحقيقة ما أَقْدم عليه في قبول شروط الصلح، ويقينه ﷺ بالعاقبة والنصرة الإلهية!.

- دلالات الحوار بين عمر وأبي بكر، رضي الله عنهما، ففيه: مطابقة أجوبة أبي بكرٍ لأجوبة الرسول ﷺ، مع عدمِ عِلمه بأجوبة الرسول ﷺ مِن قبل!، وفيه قولةُ أبي بكر الرائعة: " أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهْوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ على الْحَقِّ!"، وما أحوج المسلمين اليوم إلى مراعاة هذه الحقيقة ومقتضياتها في خطابهم الديني.
- دلالات قصة أبي بصير مع الرسول ﷺ ووفاؤه للمشركين عهدهم، على الرغم مِن عدمِ رضاه بهذا الوفاء؛ لِما فيه مِن الإضرار بفردٍ مِن المسلمين، فكان عاقبة ذلك أنْ جعله الله خيراً وبركةً على الإسلام والمسلمين!.
- دلالةُ كونِهِ ﷺ قد أَبرم هذا الصلح مع قومٍ يَختلِف معهم اختلافاً كبيراً؛ حيث كان الخلاف بينهم إلى درجة الحاجة إلى القتال، كما يَظهر هذا الخلاف في قصة الصلح هذا، "وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ"، ومع ذلك اجتمع معهم، وتفاوض معهم، وأَبرم الصلح معهم، والمهم أنه مفاوِضٌ حُرٌّ، يَعي ما يأتي وما يَذَرُ، ويُميِّز بين المكسب والخسارة.

إنّ هذا الحديث، وأمثاله، أنموذجٌ للخطاب النبوي مع غير المسلم، ينبغي دراسته، والوقوف عند خصائصه، والتأسّي برسول الله ﷺ في ذلك بتطبيق ما اشتمل عليه مِن هداياتٍ في الخطاب الإسلامي.

النموذج الثاني مِن حديثه ﷺ في خطابه لغير المسلم:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ. فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ

هَذَا الرَّجُلَ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ على يَدَيَّ. قَالَ: فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي على يَدِي مَنْ شَاءَ؛ فَهَلْ لَكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِي لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ:). قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عليَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ!.

فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ – قَالَ – فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ؛ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ؛ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ(٢٦) –قَالَ– فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ على الإِسْلاَمِ! – قَالَ – فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَعلى قَوْمِكَ). قَالَ: وَعلى قَوْمِي –قَالَ– فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدُّوهَا؛ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ(٢٧).

هذا الحديث، وأمثاله، أنموذجٌ للخطاب النبوي مع غير المسلم، ينبغي دراسته، والوقوف عند خصائصه، والتأسّي برسول الله ﷺ في ذلك بتطبيق ما اشتمل عليه مِن هداياتٍ في الخطاب الإسلامي.

ومِن دلالات هذا الحديث ما يأتي:

- حُسْن الخطاب النبوي، وروعة بيانه؛ إذْ جاء مبنيّاً على الحق واضحاً جليّاً، دون لبْسٍ، مما أَسَر على المخاطَب عقلَه وقلْبَهُ!.
- سلامة الخطاب مِن أسباب صَرف المخاطَب عن الهداية بأيِّ سببٍ مِن الأسباب، كالانشغال بمخاصمة المخالفين مخاصمةً في غير موضعها، فقد جاء خالصاً لبيان الحق.
- مراعاة المناسب مِن الخطاب في طبيعة المخاطَب، والدخول عليه بمدخلٍ كان كافياً لإقناعه، بل لإخضاعه للحق والهداية بمحض اختياره وقناعته!.

---

(٢٦) ناعوس البحر، المراد به: لُجّتُهُ، أو وَسَطُهُ، أو قَعْرُهُ.

(٢٧) مسلم، برقم ٢٠٤٥، عن ابن عباس.

- ظهور نتائج الخطاب النبويّ مِن الإيجابية المؤثرة إلى أبعد حدٍّ؛ حيث كانت النتيجةُ أنْ أَسلمَ الرجل، وبايع الرسول ﷺ على الإسلام، قبْل أن يقول له رسول الله ﷺ، مثلاً: أدعوك إلى الإسلام! بل وبايع الرجلُ رسولَ الله على إسلام قومه!.
- ذكاء الرسول ﷺ وحكمته، إذْ استثمر هداية الرجل حينما استجاب طوعاً للدخول في الإسلام، فطلب منه أن تكون البيعةُ أيضاً، على إسلام قومه؛ ليتكفّل بذلك، ويقوم بجهدِ دعوتهم.
- ومما يَلْفت النظر أنّ النتيجة الإيجابية لخطاب الرسول ﷺ قد جاءت مِن مجرّد سماع المخاطَب مقدمة كلامه، ولم يَحتج أن يُكمِل كلامه!. وفي هذا قدوةٌ للمسلم والمسلمة في مخاطبة الناس، وفي أسلوب دعوتهم، وأنّه إذا روعيت سِمات الخطاب الإسلاميّ المطلوب؛ فإنّ النتائج الإيجابية ستكون هي ثمرتَهُ الطبيعية في أغلب الأحوال، وذلك حينما يكون الكلام هادياً، لا فتنةً، وليس عائقاً للهداية، وأنّه بقدر ما يتحقق في الخطاب الإسلامي اليوم مِن الاقتداء برسول الله ﷺ تكون النتائج، ويكون الصلاح والإصلاح. وبقدر ما يكون مِن الابتعاد تكون الثمار النكدة!.

النموذج الثالث مِن حديثه ﷺ في خطابه لغير المسلم:

ما جاء عنه ﷺ في معالجته لتصرُّف عائشة رضي الله عنها في موقفها مِن إساءة اليهود إليه ﷺ، كما في الحديث الآتي:

"...أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ -ﷺ- فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: (مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ). قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: (أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ)[٢٨]".

(٢٨) البخاري، برقم ٦٠٣٠، عن عائشة رضي الله عنها.

هذا الحديث، وأمثاله، نموذجٌ للخطاب النبوي مع غير المسلم، ينبغي دراسته، والوقوف عند خصائصه، والتأسّي برسول الله ﷺ في ذلك بتطبيق ما اشتمل عليه مِن هداياتٍ في الخطاب الإسلامي.

ومِن دلالات هذا الحديث:

- اعتماد الرفق في الأمور كلها، وعدم العنف.
- اعتماد المعاملة بالمثل في حدودها الطبيعية، وعدم تجاوزِ الحد في معاملة المخالف.
- الابتعاد عن الفحش في الخطاب، (مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ).
- الابتعاد عن فتنة غير المسلمين وصدّهم عن الهداية بأيِّ أُسلوبٍ مِن أساليب الصدّ والفتنة.
- رعاية مقاصد الإسلام في التعامل مع غير المسلمين، والحرص على الأساليب الناجحة لهدايتهم، لا الانسياق وراء دوافع الانتصار الشخصيّ للنفس، الذي يَجرُّ إليه تصرفات المخالف وعنجهيته، أو اعتداؤه!.

النموذج الرابع مِن حديثه ﷺ في خطابه لغير المسلم:

ما جاء عنه ﷺ مِن الحديث مِن أنّه عَرّف الإسلام والإيمان لِمَن سأله عنهما بأمورٍ أساسية- بحسَب الخطاب النبويّ الكريم- منها (طِيبُ الكلام، وإطعام الطعام، والصبر، والسماحة، وأن يَسْلم المسلمون مِن لسانه ويده، والخُلُق الحسَن ...إلى آخر ما هنالك!)؛ فقد جاء في مسند أحمد بسنده إلى عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ﷺ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ مَعَكَ على هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: (حُرٌّ وَعَبْدٌ). قُلْتُ: مَا الإِسْلاَمُ؟. قَالَ: (**طِيبُ الْكَلاَمِ** وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ). قُلْتُ: مَا الإِيمَانُ؟. قَالَ: (الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ). قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟. قَالَ: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ). قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الإِيمَانِ أَفْضَلُ؟. قَالَ: (خُلُقٌ حَسَنٌ). قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الصَّلاَةِ أَفْضَلُ؟. قَالَ: (طُولُ الْقُنُوتِ). قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟. قَالَ: (أَنْ

تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ). قَالَ: قُلْتُ: فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟. قَالَ: (مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهَرِيقَ دَمُهُ). قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ السَّاعَاتِ أَفْضَلُ؟. قَالَ: (جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرُ، ثُمَّ الصَّلاَةُ مَكْتُوبَةٌ مَشْهُودَةٌ، حتى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، ...)، الحديث[٢٩].

هذا الحديث، وأمثاله، نموذجٌ للخطاب النبوي مع غير المسلم، ينبغي دراسته، والوقوف عند خصائصه، والتأسّي برسول الله ﷺ في ذلك بتطبيق ما اشتمل عليه مِن هداياتٍ في الخطاب الإسلامي.

ومِن دلالات هذا الحديث:

- منهجُ تعريفه للإسلام لِمَن سأله عنه، حيث عَرّفه بمختلف خصائصه المؤثّرة تلك، مراعاة لحال السائل وحاجته.
- ظاهرة السلاسة في تعريفه للإسلام، سلاسةً يَدخل بها دخولاً أخلاقيّاً ومنطقيّاً سهلاً إلى العقول والقلوب.
- اشتمل تعريفه للإسلام على العناصر الآتية: **طِيبُ الْكَلاَمِ** وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ – الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ – أَنْ يَسْلم الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ – الْخُلُقُ حَسَن – طُولُ الْقُنُوتِ – أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ!.

النموذج الخامس مِن حديثه ﷺ في خطابه لغير المسلم:

حديث زيارته ﷺ للغلام اليهودي، وهو عند البخاري في صحيحه: عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ، ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمْ). فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهْوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ. فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهْوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ).

ومِن دلالات هذا الحديث:

- بيان منهج الرسول ﷺ في التعامل مع غير المسلمين، كاليهود، مثلاً، وأنه ما

(٢٩) أحمد في المسند، برقم ١٩٩٦٣، ٢٥٧/٤٢.

كان زاهداً في دعوتهم إلى رضوان الله والجنة، باتّباع هذا الدين.

- تواضعه ﷺ وحرصه على حُسْن العلاقة بين المجتمع المسلم ومَن معه مِن غير المسلمين، وإنّ مجرد زيارته ﷺ لليهودي تكفي دلالةً على هذا المعنى، الذي ربما استعظمه بعض المسلمين اليوم، أو استغربوه!.
- بيان أنّ أصل العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ليست الحرب، وإنما السلم.
- سرور الرسول ﷺ بإسلام الغلام اليهودي، وإنقاذه مِن النار، على غير طمعٍ في مصلحةٍ مِن ورائه، وهو غلام مريض، ثم مات في حينِ هذه الدعوة.
- ظهور الأثر الحسَن لتعامل الرسول ﷺ مع اليهودي فيما قاله والدُ الغلام لابنه!.

ثالثاً: الأحاديث المشتملة على مكاتبات الرسول ﷺ لغيره: مسلمين، وغير مسلمين، موافقين ومخالفين:

ومِن الأمثلة على هذا النوع مِن الأحاديث: خطابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وخطابه إلى كسرى، وخطابه إلى قيصر، وسِواهم، الواردة في كتبِ السنّة وفي كتب السيرة، المعلومة المشهورة(٣٠).

ومما جاء في خطابه ﷺ الذي بعثه إلى هرقل عظيم الروم: ...قَالَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ) إِلَى قَوْلِهِ (اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)...)، الحديث.

دلالات هذه الأحاديث:

(٣٠) يُنظر كتبُ السنّة، وكتاب: "إعلام السائلين بكتب سيد المرسلين"، لمحمد بن محمد ابن طولون، تحقيق محمود الأرناؤط، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ.

إنّ استقراء هذه الأحاديث يَدّل على أنّ الخطاب فيها كان خطاب هدايةٍ، وحِرصٍ على إدخال الناس في الخير، وإيصال الرسالة إليهم بوضوح وحكمة وعقلٍ؛ بحيث تقوم الحجة على المخاطبين، ويَخلو الخطاب مِن أيِّ عائق يَحول بينهم وبين قبول الحق، و لم يَنشغل فيها رسول الله ﷺ بنقْد ما هم عليه مِن باطل بقدْرِ ما انشغل في تلك المكاتبات ببيان الرسالة والحق الذي يَدعوهم إليه!.

وتَدل هذه الأحاديث على أنه ﷺ كان يبدأ مَن يَكتب له مِن غير المسلمين بالسلام، بالصيغة الواردة عنه في تلك المكاتبات.

وتَدل هذه الأحاديث على أنّ الرسول ﷺ لم يُجرِّد أولئك الذين أرسل إليهم خطاباته مِن ألقابهم ومناصبهم، وإنما وَصَفهم بها، كما في قوله: (إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ)!.

وتدل على أنه ﷺ لم يَستثرْهم بالتحدي، أو بالسب، وما إلى ذلك، وإنما دعاهم إلى الحق، وذَكّرهم بمسؤوليتهم تجاه القبول أو الرفض.

رابعاً: نتائج الخطاب النبويّ وآثاره الحسنة في الآخرين:

يتبيّن مِن خلال هذه الأحاديث، وأمثالها، الآتي:

١- استقراؤنا الأحاديث النبوية القولية منها، والفعلية، ذات العلاقة، يُمَكِّننا مِن استنتاج هدي الإسلام في الخطاب والعلاقة والتعامل.

٢- اشتملت أحاديث رسول الله ﷺ على أُسس الخطاب التي بها يَزكو ويؤتي ثماره الطيبة في الدنيا وفي الآخرة، سواء في خطابه للمسلمين، أو في خطابه لغير المسلمين.

٣- مما اشتملت عليه أحاديث رسول الله ﷺ مِن أُسس الخطاب الإسلامي المطلوب مراعاته، ما يأتي:

٤- تشريع منهج الخطاب الإسلامي للأُمّة وبيان سِماته وخصائصه بالقول والفعل.

٥- قوّة التأثير الحسَن في المخاطبين، باستجابتهم الفورية في كثير مِن الأحيان، وإسلامهم.

٦- تأليف قلوب الناس على الإسلام وعلى الخير.

٧- تخفيفُ عداوة الخصوم، وتحييد شرِّهم.

٨- التعامل مع الخصوم ومع غير المسلمين بِبعْد نظر، يُحسَب فيه الحساب للمستقبَل، والتعامل معهم تعاملاً يُقيم العلاقة معهم على إمكان التواصل للدعوة وتحقيق المصالح الممكن تحقيقها لصالح الأمّة.

٩- توفير الأوقات والجهود واختصارها بخصائص الخطاب النبوي المورِث في الناس تلك الاستجابة الحسنة السريعة.

١٠- تربية المسلمين على منهج الخطاب النبوي والتعامل النبوي الكريم مع الموافقين والمخالفين، وضرب المثل والقدوة الحسَنة لهم.

١١- لم تَروِ الروايات أيَّ تأثيرٍ سلبيّ للخطاب والتعامل النبوي في أيٍّ مِن الناس، سواءٌ الموافقين والمخالفين!.

١٢- العناية بالدعوة واستفاضة البلاغ، وإيصال رسالة الله تعالى للناس جميعاً.

١٣- العناية بإيضاح التميز في منهج الإسلام. إلى آخر ما دلّت عليه أحاديثه ﷺ.

خامساً: آداب وقواعد أساسيةٌ في موضوع الخطاب الإسلامي:

إنه في ضوء تأمّل موضوع الخطاب الإسلامي مِن خلال نصوص الكتاب والسنّة يتبين لنا الآتي:

١- الإسلام خيرٌ وهدىً أنزله الله للبشرية جمعاء، وقد كلّف الله المسلمين بدعوة الأمم الأخرى إليه، وبحبِّ الخير لهم، وأمَرَهم بدعوتهم بالحكمة، وبمجادلتهم بالتي هي أحسن، وقد جاءت كثيرٌ مِن نصوص الكتاب والسنّة داعيةً غير المسلمين بأفضل الأساليب الدعوية: مَنطِقاً، وعقلاً، وخُلُقاً؛ وللمسلمين أُسوةٌ في تلك النصوص الشرعية ومناهجها لدعوة غير المسلمين، ولخطاب المسلمين الدينيّ اليوم.

٢- عدمُ الإكراه في الدين، هذا الحكم المقرر في الإسلام، مَدْخلٌ أساسٌ لفهم طبيعة الخطاب الديني المطلوب مِن المسلمين اليوم، وهو أن تكون مهمتهم هي عدمُ الإكراه، وإنما العرْضُ لا الفرْض؛ لأنّ الله تعالى قال لهم في الكتاب العزيز: ﴿لَآ

﴿إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾[٣١]، وهذا الأمر لا شك في أنه سيكون لمراعاته الأَثر الكبير في الخطاب الإسلامي اليوم.

٣- الكتاب والسنّة دستورٌ للمسلمين في كلِّ شيء، فللخطابِ الإسلامي اليوم مُهْتدى وأُسوةٌ في القرآن الكريم، وفي أحاديث رسول الله ﷺ، سواءٌ في أقواله ﷺ، أو في أفعاله وتصرفاته مع الآخرين: تعاملاً ودعوةً، مخاطبةً ومكاتبةً؛ فبتتبُّعِ ذلك كله في أحاديثه عليه الصلاة والسلام يَتَّضحُ للمسلم والمسلمة الهَدْيُ الواجب الاتّباع، والواجب الاهتداء به.

٤- الإسلام دينٌ يَرعى الفطرة الإنسانية، كما يَرْعى العقيدة والشريعة؛ فلا يتنكر للروابط الإنسانية، والعلاقات البشرية، بل يرعاها ويَحث المسلم والمسلمة على ذلك؛ فقضايا العلاقات بين الأقارب لا يتجاهلها الإسلام، حتى مع اختلاف الدِّين، والارتباط بالوطن والأرض، أيضاً، لا يتجاهلها الإسلام، وهكذا يتضح أنّ هذا الدين هو دِينُ الفطرة والعقيدة معاً، ودِينُ الروابط الإيمانية والروابط الوطنية أيضاً، ودِينُ الرابطة الإيمانية وروابط العلائق البشرية والإنسانية معاً. وعلى هذه الصورة كانت تطبيقات النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

٥- الكلام في حال السِّلم قد يَختلف عنه في حال الحرب؛ ولهذا لا يَصح الخلط بين الأمرين، وتعميم أَمثلة إحدى الحالين، وإنما يَقْضي المنهج بأن تُوضَع أَمثلةُ كلِّ حالٍ في سياقها، وإلا أدى تَجاهُلُ هذه المنهجية إلى الخلط في تحديد صورة الخطاب الإسلامي!.

٦- القاعدة الشرعية العامّة في منهج الإسلام، في مختلف المجالات، هي قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد، لرعاية المصالح ودرءِ المفاسد بقدر الإمكان، وهي قاعدةٌ تأتي في موضوع الخطاب الإسلامي بصورةٍ مؤكَّدة؛ لكي تُطبَّق فيه؛ فتتحقق بذلك منهجية الإسلام في الخطاب والتواصل والتعامل!. وهذه القاعدة مُعْلَنةٌ، ومعروفة مشهورة لدى المسلمين، وهي أَمرٌ يُؤكِّد طبيعة هذا الدين، ورغبتَهُ في

(٣١) ٢٥٦: البقرة: ٢.

الإصلاح، وتوجُّهَهُ للقضاء على الفساد والمفاسِد؛ وذلك لأنّ هذه القاعدةَ منْهجٌ أو جانبٌ مِن جوانب منهج الإسلام العامّة المطّردة في مختلف مجالات الحياة كلها!. كما أنّ هذه القاعدة ينبغي استصحابها وتفعيلها في هذا الموضوع.

٧- العدل في القول والفعل مبدأٌ أَلزمَ الإسلام به المسلم والمسلمة في التعامل مع الصديق والعدو، ومع الموافق والمخالف، ومما أمَرَ بهذا المبدأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣٢]، وهذا أَمرٌ يَظْهَر أَثرهُ الإيجابيّ في الخطاب الإسلاميّ كلما راعاه المسلم والمسلمة بفقهٍ سديد للنصوص الشرعية ذات العلاقة، وفقهٍ للقواعد الكلية العامّة في الشريعة الإسلامية.

٨- باب الاجتهاد المشروع في الإسلام بضوابطه الشرعية مفتوحٌ، وهو عنصرٌ آخر مِن عناصر المنهج الإسلامي في مختلف قضايا الاجتهاد، ومِن ذلك المسائل المستجدة المعاصرة التي تحتاج إلى اجتهاداتٍ جديدةٍ مُواكِبةٌ لمتطلبات العصر ومستجداته!.

٩- لِطبيعةِ فقْه الناظرين في نصوص الكتاب والسنّة، ومسالِكهم في الفقه أَثرٌ فيما يستنبطونه مِن النصوص الشرعية: صواباً وخطأً، سماحةً وتَعنّتاً، تيسيراً وتشديداً، انفتاحاً وانغلاقاً، تَعصّباً وتسامحاً؛ وبناءً عليه فإنّ خطأَ المخطئين مِن المسلمين في فهم الدِّين يَجِب أن يُحْسَب عليهم، لا على الإسلام! فلا يَصِحُّ أن يُشوّهَ الإسلام بسبب خطأِ المخطيء مِن أبنائه، سواءٌ أكان عن اجتهاد، أم عن خطأٍ غير مقصودٍ، أم عن خطأٍ متعمَّدٍ!.

١٠- للتقليد أَثرُهُ في طبيعة فهْم بعض المسلمين لدينهم، سلباً وإيجاباً، وبالتالي يكون له أثره في خطابهم الديني.

١١- وللتعصب، كذلك، أَثرُهُ في طبيعة فهْم كلٍّ مِن المسلمين لدينهم، سلباً وإيجاباً،

(٣٢) ٨: المائدة: ٥.

وبالتالي يكون له أثره في خطابهم الديني.

سادساً: بعض سِمات الخطاب الإسلامي مِن خلال استقراء نصوص الكتاب والسنّة:

إنّ النظر في نصوص الكتاب والسنّة يُظْهِر عدداً مِن سِمات الخطاب الإسلاميّ، ومِن ذلك ما يأتي:

١- ذَهب الخطاب في الكتاب والسنّة إلى أبعدَ مِن قضية المصداقية والفاعلية في الخطاب، وسائر أُسس الخطاب الناجح، إذ تعدّى هذا إلى الجانب الجمالي الفني والأسلوبي في الخطاب؛ فجاء الخطاب فيهما حقّاً وصادقاً، وجميلاً رائعاً، يأخذ بالألباب والعقول، وقد رأينا كيف كان تأثير كلمات الرسول ﷺ في ضِمادٍ الذي جاء بزعمه لِيتطبَّب في الرسول، لكن، كانت النتيجة أنْ أسلم الرجل، وتكفّل بإسلام قومه بسماعهِ لمقدّمة كلام رسول الله ﷺ فقط!!.

٢- الأخذ بمبدأِ عفّة اللسان، وسُمُوّ التعبير، وذلك حتى في التعبير -مثلاً- عن المنكرات المجترِحةِ للفضيلة والحياء، فالتعبير عن الرذائل لا يكون تعبيراً عنها بصراحة، بقدر الإمكان، كالتعبير عن الفاحشة الأخلاقية، فإنّه جاء التعبير عنها في القرآن الكريم بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٣٣]، فلم يُصرِّحْ بجريرتهما؛ لسوئها، ولكونها تنبو على الألسن والآذان؛ فتؤذي الفضيلةَ في ذهن السامع والقارئ.

وفيما يتعلق بالحديث عن البالغين وغير البالغين ومَنْ يُحتَرَزُ منه مِن الرجال في الاطّلاع على النساء استثنى الله صِنْفاً فقال تعالى بشأنهم:

﴿... أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟

(٣٣) ١٦: النساء: ٤.

عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[٣٤]، فلَم يُصرِّح بالموضوع، وإنما كَنّى عنه بقوله سبحانه:

(... أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ)!، فما أسماه مِن أُسلوب تستحليه العقول والقلوب!.

وفي التعبير عن المعاشرة الزوجية قال رسول الله ﷺ: (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ)[٣٥]، فعبَّرَ عن الأمر هكذا، فقال: (إذا أَتى أَهلَه)، ولم يُصرِّح!. وفي الكتاب العزيز جاء التعبير عن ذلك بمثل قوله تعالى:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)[٣٦]؛ فانظر كيفَ كَنّى عن هذا الأمر بقوله تعالى: (وَلَا جُنُبًا)، وقوله: (أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ)!!. وكنّى عن قضاء الحاجة بقوله: (أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ)!!. إنّه أَدبُ القرآن الكريم، وأَدبُ رسول الله ﷺ في حديثه، الذي يَرسم الطريق للمسلم والمسلمة، ويُربيهما على هذا الأدب الرفيع، العالي في السموّ والفضيلة، إنّه مستوى فوق مستوى الالتزام بالحق والمصداقية والصواب إلى هذه الرفعة في الأسلوب في التعبير عن الحق والصواب والتعاليم والأحكام!!.

٣-عُنِيَ الإسلام في التعامل مع أخطاء المخطئين بمبدأ البناء والتصحيح والتقويم

(٣٤) ٣١: النور: ٢٤.

(٣٥) البخاري، في مواضع متعددة، منها، برقم ١٤١، ومسلم، برقم ٣٦٠٦.

(٣٦) ٤٣: النساء: ٤.

السليم، أكثرَ مِن عنايته بمبدأِ إصدار الأحكام عليهم وعلى أخطائهم، حتى إنّ الله تعالى قد وَجّهَ إلى المسرفين في الذنوب مِن عباده نداءً ربّانيّاً حانياً، فاتحاً لباب التفاؤل والأمل في رحمة الله ومغفرته للتائبين منهم، مهما كانت ذنوبهم! وقد جاء هذا في الكتاب العزيز في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣٧]!!.

٤- أَمَر الله المسلمين بالصبر والتقوى والإحسان، وأرشدهم إلى سعة أرضه؛ فلا ينبغي لهم الضيق أمام كيد أعدائهم واضطهادهم لهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣٨].

مما تدل عليه أحاديث الرسول ﷺ أُمورٌ كثيرة، مهمة، تتعلق بالخطاب الإسلامي، والهدْي المطلوب فيه، فمِن ذلك:

- دعا رسولُ الله ﷺ إلى طِيب الكلام، إلى جانب دعوته إلى مصداقية القول والتزامه بكلٍّ مِن الحق والصواب؛ فكان ذلك نوراً على نور.

قال رسول الله ﷺ: (إن في الجنة لغُرَفاً، يُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها)، فقام أعرابي، فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ قال: (**هي لمن قال طيب الكلام**، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وقام لله بالليل والناس نيام)[٣٩].

وعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- كَانَ يَقُولُ فِي صَلاَتِهِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ (**أَحْسَنُ الْكَلاَمِ** كَلاَمُ اللَّهِ وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ)[٤٠].

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: "إنّ مِن أكبر الذنوب عند الله، أن يقال

---

(٣٧) ٥٣: الزمر: ٣٩.

(٣٨) ١٠: الزمر: ٣٩.

(٣٩) صحيح ابن خزيمة، برقم ٢١٣٦، ٣/٢٠٦، عن عليّ رضي الله عنه.

(٤٠) سنن النسائي، برقم ١٣١١، عن جابر رضي الله عنه.

للعبد: اتق الله. فيقول: عليك نفسك. **وإنّ مِن أحسن الكلام** أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي"[٤١].

- دعا رسول الله ﷺ إلى الأخذ بأمورٍ كثيرة جاءت بها تعاليم الإسلام، مِن الصعب سردها كلها في هذا المقام، وقد مضت الإشارة إلى بعضها[٤٢].

(٤١) السنن الكبرى للنسائي، برقم ١٠٦٨٨، ٦/٢١٣.

(٤٢) يُنظر: المبحث الثاني: معالم الخطاب النبوي مِن خلال أحاديثه ﷺ، من هذا البحث.

المبحث الرابع
المأمول في الخطاب الإسلامي اليوم

بعد وقوفنا على شيءٍ مِن معالم الخطاب الإسلامي في الإسلام، مِن خلال حديث رسول الله ﷺ، والنظر في دلالاته، ووقوفنا على أنواعٍ مِن الخلل وتَنكُّبِ بعض القائمين بالخطاب الإسلامي لتلك المعالم، وبعد الإشارةِ إلى بعض خصائص الخطاب الإسلامي =نَدْلِف -قبل النهاية- إلى الحديث عن المأمول مِن الخطاب الإسلامي، وهو أُمورٌ كثيرة، ولكن، أَذكر ذلك مُجْمَلاً في الآتي:

١- تجاوزُ "شخْصنة" القضايا والمواقف والآراء، التي لا علاقةَ لها بالأمور الشخصية البحتة، والعودة بها إلى إطار البحث العلمي الموضوعيّ، ورَبْطها بالقضايا العامة، والمصالح العامة للإسلام والمسلمين.

٢- التخلص مِن أسلوب الردود والمهاترات، والعودة إلى أسلوب تقديم الحق بصورةٍ صحيحة مليحة، الأسلوب الذي يغني عن مسلك الردود والمهاترات؛ ولذلك ينبغي عدم التوجُّه إلى أسلوب الردود المباشِرة على الأشخاص، وتسمية الشخص المردود عليه، إلا في الحدود العلمية الموضوعية المتجرّدة مِن الهوى.

٣- من المهم أن يتبيَّن الناس الحريصون على هداية الآخرين أنه - بعد الإخلاص- يتعين على الداعي إلى الخير، أو إلى هذا الدين بعامة، أن ينطلق في تعامله مع الناس من ركيزتين في غاية الأهمية، هما: الفقه في الدين، والأخلاق الإسلامية؛ فليس ثَمَّةَ بابٌ لنقل الإسلام وهداياته إلى الناس، بفعالية رائعة، مِن غير الفقه في الدين، وبدون الأخلاق الفاضلة التي جاء الإسلام لتتميمها!. أسأله تعالى أن يُصْلح نيّاتنا، ويُسدِّد خطواتنا، ويُحَسِّن أخلاقنا.

٤- المراجعة النقدية الذاتية، للمفاهيم والمناهج المتّبعة، وَفْق نظرةٍ تأصيليةٍ مُحتَكِمةٍ إلى نصوص الكتاب والسنّة، بناءً على فقهها فقهاً سديداً؛ للتخلص مِن السلبيات، والتأكيد على الإيجابيات وإنمائها، وتفعيلها في واقع المسلمين اليوم.

٥- تحرير فقْهنا لمفاهيمنا عن آراء السلف الصالح ومواقفهم، عِوضاً عن مفاهيمنا عنهم المعتمِدة على أخْذها بالتقليد، دون وقوفنا على الاستدلال الصحيح فيها، ودون تفريق بين أخطاء الاجتهاد، وبين ما قامتْ عليه قواطع الأدلة، ودون تفريق بين آراء الأفراد والإجماع.

٦- تحرير فهمنا لمنهج السلف الصالح، تحريراً يُفرِّق بين الخطأ والصواب، وما يَصح فيه متابعتهم وما لا تصح متابعتهم فيه شرعاً، طالما أنّ المسألة ليست إجماعاً.

٧- تفعيل الاجتهاد الشرعيّ، بضوابطه العلمية المعتبرة، وإعماله في مستجدات العصر، والتفريق -في ما يحتاج إلى تفريق- بين مسائل عصرنا ومسائل عصْر الأسلاف الصالحين.

٨- التأكيد على مبدأِ الاتّباع وعدم الابتداع، وَفْق فقهٍ سديد لمسائل الإسلام وقضاياه، والاستمساك بنصوص الكتاب والسنّة بحسب فقهها على أصول الفقه السديد، دون إفراطٍ أو تفريطٍ فيما يتعلق بكثيرٍ مِن مجالات فهم الكلام بين الظاهرية وعدمها، وبين التأويل وعدمه، وبين رعايةِ كلٍّ مِن الغيب والشهادة...إلخ.

٩- إحياء مبدأِ السماحة والتسامح في الإسلام، في فقه الدين، وفي التعامل مع الآخرين، وفي الدعوة، وفي الخلاف وفي الوفاق، وفي التواصل والعلاقات، سواءٌ كان ذلك تطبيقاً، أو دعوةً إليه.

١٠- تبصير المسلمين بتلك الأخطاء المتعددة المجانبة لهدْي الإسلام في الخطاب والعلاقات والتواصل التي أشار إليها البحث، مثل الأخطاء في مجال:

- علاقة المسلمين فيما بينهم.
- علاقة المسلمين بغير المسلمين.
- تطبيقات أصول الخلاف في المسائل الخلافية.
- تطبيقات أصول الحوار.
- منهجيتنا في فقهنا للإسلام.

١١- تحرير منهجية دعوة الآخرين إلى الإسلام، سواء أكانوا مسلمين، أم غير مسلمين، بحيث تكون على الفقه السديد، والأساليب الإيجابية.

١٢- إشاعة سماحة الإسلام، وفاعليته، وحقائقه، وإعجازه، وسائر خصائصه؛ لإقامة الحجة على العالمين على مستوى عصرنا.

١٣- مواجهة الاتجاهات المناوئة للخطاب الإسلامي المعتدل الراشد، المبني على أُسسٍ متينةٍ مِن الفقه المعتمَد لهذا الدين، ومحاورتها، وتقديم الصورة الناصعة للخطاب الإسلامي بديلاً لِما يُروَّج له مِن مسالك يراد لها أن تَحُلَّ محل الخطاب الإسلامي، أو تَنال منه.

١٤- اعتماد لغة التوثيق العلمي في ما يحتاج إلى ذلك؛ إذ ليس مِن المقبول مخاطبة الآخرين في قضايا الخلاف، وقضايا الردود بيننا وبينهم بأسلوب بعيدٍ عن لغة البحث العلمي، وعن التوثيق في مسائل الخلاف بيننا وبينهم.

١٥- أهمية العناية بمخاطبة مختلف الشعوب بلغاتهم، وقد نبَّهَنا الله تعالى إلى أهمية ذلك، إذْ لم يُرْسِل نبيّاً إلا بلغة قومه، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾ إبراهيم: ٤.

١٦- أهمية العناية بوضوح الخطاب الإسلامي: وضوح الرؤية والفكرة، ووضوح الأسلوب والمفردات، ووضوح الاستدلال والمنطق، واطّراد الخطاب مع بقية منظومات الفقه السديد للإسلام.

١٧- بَذْل الجهود لتبصير الناس بهذا المأمول مِن الخطاب الإسلامي، وتدريبهم على مختلف أنواع هذا الواجب. وينبغي أن يكون تبصير الناس بذلك كله مراعىً فيه مختلف السبل المناسبة.

١٨- أهمية التدريب المنهجيّ على مختلَف تطبيقات الخطاب الإسلامي وَفْق أُسسه المطلوبة شرعاً.

١٩- إلى آخر ما هنالك مما هو منتَظَرٌ مِن الخطاب الإسلامي المعاصر؛ لكي ينهض مِن

بعض كبوته، ويعود إلى سابق مجده وقوّته، وكي تؤازَر تلك الإيجابيات الملحوظة اليوم في الخطاب الإسلامي، ويُعْمَل على إنمائها.

في الإسلام ثقافة جميلةٌ تتعلق بأدب الحديث، وأدب استماع الحديث، لو طُبّقتْ تلك الثقافة لكانت بلسماً لكثير مِن الأدواء في هذا المجال، ولكانت علاجاً للمشْكِل مِن الأخطاء الشائعة بين الناس، والتي ارتُكِبت في الغالب باسم الإسلام.

وفي الإسلام أحكامٌ وتعليمات تتعلق بالعقيدة والشريعة والأخلاق شاهِدةٌ بِسموِّ منهج الخطاب الإسلامي في هذا الدين، وكفيلةٌ بمعالجة ما طرأ على الخطاب الإسلامي لدى المسلمين مِن تَشوّهاتٍ وأخطاء، لو عُدْنا إليها.

يقول د. عبد الكريم بكار: "إن تجديد الخطاب الإسلامي لا يعني أن نعيده إلى الحالة التي كان عليها في عهد سابق بإطلاق، فهذا غير سديد ولا حكيم، وهو أيضاً غير ممكن، وإنما يعني:

١- أن نجعله كسابق عهده على مستوى التمسك بالأصول والالتزام بالضوابط المنهجية المتفق عليها، فنصونه عن الكذب والمبالغة والخرافة والتزوير، وننأى به عن أن يستخدم لتحقيق مآرب شخصية ومنافع خاصة.

٢- تأسيسه على الإخلاص لله –تعالى– وشحنه بالصفاء والمشاعر النبيلة وحب الخير للناس.

٣- تجديد الأفكار والمفاهيم وأوجه البرهنة والاستدلال وبلورة التداعيات المنطقية التي نستخدمها في ذلك الخطاب.

٤- استخدام الأساليب الكتابية والقولية الحديثة والملائمة للذائقة الثقافية المتجددة لدى الناس.

٥- ملامسة حاجات الناس والعمل على تبصيرهم بالتحديات والفُرَص التي تنتظرهم"(٤٣).

اللهم سَدّد النياتِ والأقوالَ والأعمالَ، وحَقِّق الآمال.

---

(٤٣) تجديد الخطاب الإسلامي "الشكل والسمات"، ص ١٧-١٨.

الخاتمـة

هذا ما تيسر ذكره في هذا الموضوع، سائلاً الله تعالى القبول والعفو عن الزلات.

وإنما الأعمال بالنيات، ويَعْلمُ الله أنني ما قصدتُ في ما كتبته سِوى بيان شيءٍ مِن هذا الدين، الذي أكرمَنا الله به، وشيءٍ مِن سُموِّ أخلاقه وهدْيه، وتخليص ديننا مِن أخطائنا في هذا الموضوع؛ نصحاً وإبراءً للذمة-كما قلت في المقدمة-.

و لم تكنْ غاية هذا البحث الدعوة إلى المداهنة في الأخطاء، وإنما الدعوة إلى فقه تصحيح الأخطاء، وتصحيح صورة الخطاب الإسلامي بما يتفق مع دلالات الكتاب والسنّة وأصول أهل السنة والجماعة.

وما ورد في البحث فيما يتعلق بنقْد التعصب في طريقة إنكار البدعة إنما كان كلاماً في السياق الذي ذكرتُهُ فيه فأرجو أنْ يُراعى فيه هذا المعنى، ولا يُفسَّر تفسيراتٍ مخطئة.

ومعلومٌ أنّ المبتدِع إذا كانت بدعته **غير مكفِّرةٍ فهو مسلم**، له حقوق المسلم، دون مؤازرته في بدعته أو خطئه.

فهذا الموضوع ليس دفاعاً عن المبتدع، وإنما هو دفاع عن أحكام الإسلام وهدْيه الذي أُسيء فهمه من عددٍ من الناس!.

وليس دفاعاً عن المبتدعين، وإنما هو دفاع عن المسلمين الذين صنّفهم بعض الناس -ظلماً وعدواناً- بأنهم مبتدعة، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك، وإنما هم على العكس، لكنه التسرع والجهل والشطط في المنهج الذي قاد إلى هذا التصنيف غير المنصف!.

وما في هذا البحث من ردٍّ للمفاهيم والمسالك الخطأ تجاه تصوّر بعضهم لمنهج الإسلام في التعامل مع المبتدع المسلم هو ردٌّ يتحقق به بيان الصواب في هذا الأمر، إضافةً إلى إنصاف المسلم البريء المصنَّف -زوراً وظلماً- بأنه مبتدِع، أو تكفيره وتبديعه والدعوة إلى القيام بالواجب تجاه الأخ المسلم الذي وقع في بدعةٍ أو أكثر،

بدلاً مِن هجره ومعاملته بالغلظة والبغض والعداوة. إلى آخر ما هنالك.

وقد قال ﷺ: (مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ)(٤٤)، وقال ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ)(٤٥)، وهذا الحكم يُحَكَّمُ في الطرفين المخطِئين كليهما.

وليس المراد بالبحث مَنْع مَنْ يلحقه الضرر بمجالسة المخطئين والخاطئين مِن عاصٍ أو مبتدعٍ مِن الابتعاد عن أُولئك، كَمَنْ يكون جاهلاً، لا يميِّزُ الحق من الباطل، والخطأ مِن الصواب، ومَنْ كان ضعيف الإيمان، لم يتمكن من معرفة أَمْر الإيمان، ووجْهِ الصواب في قضايا الإيمان والإسلام وفي العقيدة والشريعة؛ فإنَّ مثل هذا الإجراء إجراءٌ وقائيٌّ مصلحيٌّ، لا شيء فيه، وليس ثَمَّةَ ما يمنع منه، بل قواعد الشرع تقتضيه؛ لكن، على أن لا يكون اتجاهاً مذهبياً دينياً يؤصِّل الحقد تأصيلاً دينياً بين المسلمين.

والأئمة الذين منعوا مِن مجالسة أهل البدعة كان مَنْعهم، غالباً، مِنْ قبيل التحصين مِن البدعة، لا مِنْ قبيل تأصيل الحقد دينيّاً، ولا مِن قبيل تقرير حكم الشرع المطلق في هذا الباب؛ وكيف يمكن أن يُظن أن أقوالهم ومواقفهم تلك إنما يُقَرِّرون بها حكم الشرع المطلق مع أن الله يقول: **(لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**(٤٦)؟!.

ومما ينبغي التنبه له، والتنبيه عليه هنا، هو أنّ الإسلام يَرُدّ البدعة ممن كانت، سواء أكانت مِن أحدٍ مِن أهل السنّة، أم مِن سِواهم، ومِن مبتدِعٍ أم مِن سِواه؛ وذلك لأن البدعة مردودة لأنها بدعة؛ لا لأنها صَدَرتْ مِن فلان أو فلان!.

وليس صحيحاً أنّ البدعة لا تَصْدُرُ إلا مِن قومٍ مخصوصين ليسوا مِن أهل السنّة

---

(٤٤) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، البيوع، باب النَّجَش، الفتح٤/٣٥٥، ومسلم: برقم١٨ الأقضية، وأخرجه أبو داود وغيرهم.

(٤٥) أخرجه البخاري رقم ٢٦٩٧، الصلح، وقال: "ما ليس فيه"، ومسلم برقم ١٧، الأقضية، وقال: "ما ليس منه"، وأخرجه أبو داود وغيرهم.

(٤٦) ٨: الممتحنة: ٦٠.

والجماعة!.

وهذا على عكسِ التصوّر الشائع الذي لا يُؤيده كتابٌ ولا سنّة!.

ولقد وجدتُ –بالتتبع– أنّ التركيز في الكتاب والسنّة إنما هو على رَدِّ البدعة، لا على محاربةِ المبتدِع!.

وهذا هو الذي يَنبغي أن يكون لنا منهجاً في رَدِّ البدعة، وهو أن ننادي إخواننا المخطئين، جميعاً، بنداء الله لهم: **(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)**[٤٧]، لا عكس ذلك؛ تجاوباً مع أخطاء النفس وأوهامها!.

والحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(٤٧) ٥٣: الزمر: ٣٩.